

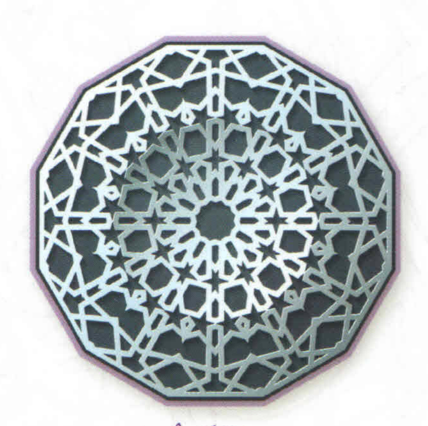
شرح رسالة

الإسلام دين كامل

عشر مسائل عظام عليها مدار الدين

للعلامة محمد الأمين الشنقيطي

رحمه الله (ت ١٣٩٣هـ)



شرحه

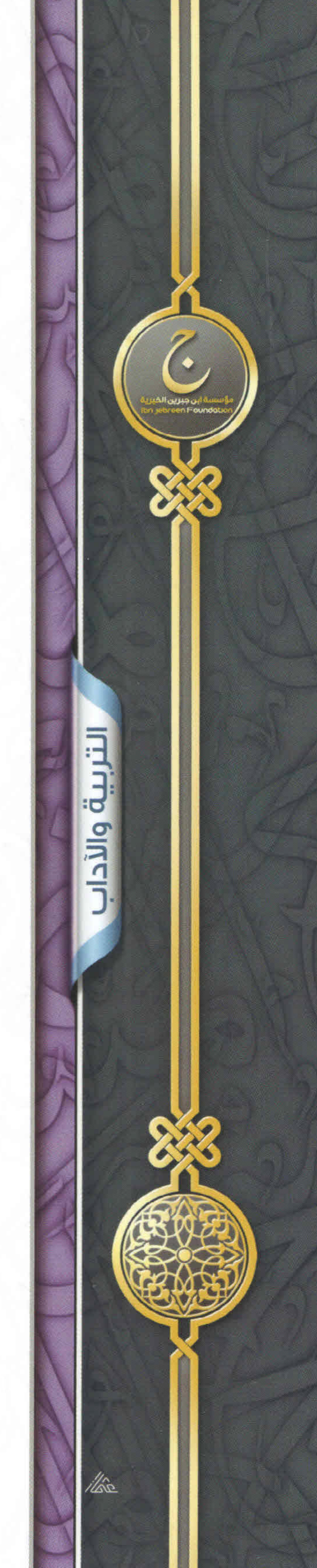
سماحة الشيخ العلامة

د. عبدالله بن عبدالرحمن الجبرين رحمه الله (ت ١٤٣٠هـ)

طبع بإشراف مؤسسة سماحة الشيخ عبدالله ابن جبرين الخيرية

العبيكان

obeikan



© مؤسسة ابن جبرين الخيرية، ١٤٤٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الجبرين؛ عبدالله بن عبدالرحمن بن عبدالله

شرح رسالة الإسلام دين كامل - عشر مسائل عظام عليها مدار الدين./

عبدالله بن عبدالرحمن بن عبدالله الجبرين؛ -ط١، -الرياض، ١٤٤٢هـ

٢١٦ص؛ ١٦,٥ × ٢٤ سم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨٢٢٤-٥٣-٣

١- الإسلام - مبادئ عامة أ. العنوان

ديوي ٢١١ ١٤٤٢/١٠٢٣٤

الطبعة الأولى
١٤٤٣هـ / ٢٠٢٢م

مؤسسة ابن جبرين الخيريه
Ibn Jebreen Foundation

المملكة العربية السعودية
ص.ب: ٣٣٥ الرياض ١١٤١١
هاتف: ٤٢٦١٠٠٠ ١١ ٩٦٦+، فاكس: ٤٢٦٣٧٠٠ ١١ ٩٦٦+
جوال ١: ٠٥٦٠٠٨٠١٠٠ ٩٦٦+، جوال ٢: ٠٥٠٦١٦١٥٠٠ ٩٦٦+
www.ibn-jebreen.com
info@ibn-jebreen.com

توزيع:

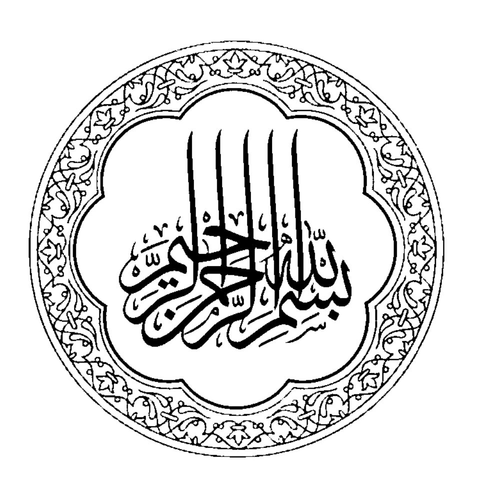


المملكة العربية السعودية-الرياض
طريق الملك فهد-مقابل برج المملكة
هاتف: ٤٨٠٨٦٥٤ ١١ ٩٦٦+، فاكس: ٤٨٠٨٠٩٥ ١١ ٩٦٦+
ص.ب: ٦٧٦٢٢ الرياض ١١٥١٧





أسهم في طباعته بعض محبي الشيخ رحمه الله ليباع بسعر تشجيعي جزاهم الله خيرًا


بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَةُ المؤَسَّسَةِ

الحمد لله الذي أكمل لنا دِينَنا، وأتمَّ علينا نعمتَه، ورَضِيَ لنا الإسلام دينًا؛ قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، والصلاة والسلام على نبيِّنا محمَّد، خاتم النبيين، وسيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بَعْدُ:

فأصل هذا السِّفْرِ المبارَك كان محاضرةً ألقاها فضيلة الشيخ العلامة: محمد الأمين بن محمد المُختار الجَكَنِيِّ الشِّنْقِيْطِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المسجد النبوي الشريف، في حدود سنة ١٣٧٥هـ، فكتب الله لها قبولًا، ثم طلَبَ منه بعض المشايخ تقييدها فقيَّدها.

ومما يميِّز هذه الرسالة: أن الشيخ الشِّنْقِيْطِيّ عندما أراد تقييدها أملاها على تلميذه الشيخ عبد الله بن جبرين رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ، ويَحْكِي الشيخ ابن جبرين قصة ذلك في مقدِّمة شرحه هذا، فيقول: (... ذُكِرَ عند الشيخ أبي حبيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1] أن الشيخ الشِّنْقِيْطِيّ ألقى محاضرة في المسجد النبوي -وهي هذه المحاضرة- فطلب منه الشيخ أبو حبيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يُمْلِيَها لتُطْبَعَ، فوافق على ذلك.

---

(١) عبد العزيز بن محمد الشثري، المعروف بأبي حبيب، من أبرز العلماء في زمنه، ومن الغيورين الباذلين للعلم والمال والجاه، توفي عام ١٣٨٧هـ. ينظر: إتحاف اللبيب في سيرة الشيخ عبد العزيز أبو حبيب، لحفيده محمد بن ناصر الشثري.

ولأن حروفهم التي يكتبون بها مُغايرة لحروفنا، وهو يقرأ في كتبنا، لكنْ نحن يصعُبُ علينا أن نقرأ في كتبهم وبحروفهم، فقال الشيخ أبو حبيب: «نُحِبُّ أن تكون بحروفنا»، فأرسلني الشيخ أبو حبيب إليه؛ ليُمْلِيَها عليَّ، فجلَسْتُ عنده بعد العصر، وإذا عنده رؤوس المسائل -العناوين- في ورقة، وأخذ يُمْلِي عليَّ بعد العصر، إلى أن كتبت هذه الرسالة في مجلس واحد، ولمَّا كتبتُها، أخذ يقرؤها ليتفقَّدَها عن الخطأ، فوجد فيها نقصًا كلمةً أو كلمتين، وخطأً في بعض الكتابة، فأصلَحْتُها، وبعدما كتبناها، تبرَّع أحد أهل الثّروة بِطَبْعَها، فطُبِعَتْ أوَّلَ مرَّة على نفقة الشيخ عبد العزيز بن إبراهيم الشَّقْري رَحِمَهُ اللَّهُ[1]، وكان ممن يُحِبُّ الخير، ولمَّا طُبِعَتْ وانتشرت في رسالة صغيرة رآها كثير من الناس، وأحبُّوا إعادة طبعِها، فطُبِعَتْ مرة ثانية، وربُّمَا ثالثة، ولكنْ بعد موته لم يشتغل بها أحد، وإن كانت كُتُبُهُ لقيت عناية...).اهـ[2].

قرَّر فضيلة الشيخ الشِّنْقِيْطِيّ في هذه المحاضرة أنَّ: (الإسلام دين كامل)؛ بأسلوب رصين، وعبارة متينة، أبرز فيها: محاسنَ هذا الدِّينِ العظيم وكماله، ضاربًا لذلك أمثلة من جوامع الكلم، اختصرها في عشر مسائل، عليها مدار الدنيا، وصلاح الدارَيْن، رتَّبها ترتيبًا بديعًا، بدأ فيها بما بدأ به الله دينه ووحيه إلى رسله عليهم السلام، وهو: التوحيد.

وهذه المسائل هي:

الأولى: التوحيد.

---

(١) يوجد في مكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض نسخة من رسالة الشِّنْقِيْطِيّ هذه مطبوعة على نفقته.

(٢) سيأتي كلام الشيخ بتمامه في مقدمة الشرح.

الثانية: الوعظ.

الثالثة: الفرق بين العمل الصالح وغيره.

الرابعة: تحكيم غير الشرع الكريم.

الخامسة: أحوال الاجتماع.

السادسة: الاقتصاد.

السابعة: السياسة.

الثامنة: تسليط الكفَّار على المسلمين.

التاسعة: ضَعْف المسلمين وقلة عَدَدِهم وعُدَدِهم بالنسبة إلى الكفار.

العاشرة: اختلاف القلوب.

وختم الكلام عن أنواع المصالح البشرية، مستدلًّا على كلٍّ ما ذكَرَ بالقرآن الكريم، وصحيح السُّنَّة، وجعل ما ذكَرَ إشارة إلى ما لم يذكُرْ.

ولمَّا كانت الرسالة مختصرةً، احتاجت إلى بَسْطِ مواضعها، وهو ما صنعه سماحة الوالد الشيخ العلَّامة عبد الله بن جِبْرين رَحِمَهُ اللَّهُ؛ حيث شرحها في دورة علمية قصيرة في محافظة المَجْمَعَة، خلال يومي الأربعاء والخميس: ٢٤ و٢٥/ ٤/ ١٤٢٩هـ، وذلك في جامع مُنِيرة التويجري في حي المروج.

فشرَحَ غامضَ العبارات، وقرَّب بعيدَ الإشارات، بأسلوب سهل ممتع، فزاد شرحُهُ الرسالةَ نورًا على نور، وقرَّر -تبعًا لشيخه- هذه الأصول المتينة والقواعد العظيمة، التي دلَّت على أن الله عَزَّوَجَلَّ أكمل الدين، وأتمَّ النعمة على المؤمنين، ورَضِيَ لهم الإسلام دينًا دون غيره.

ولحـرص مؤسَّسـة ابـن جِبْريـنَ الخيريَّـة علـى إخـراج تـراث الشـيخ رَحِمَهُ اللَّهُ؛ نشـرًا للعلـم، وخدمـة لطلَّابـه، ترجـو الثـواب مـن الله تعالـى، ثـمَ نَفْـعَ المسـلمين، تولَّـى قسـم البحـث العلمـي وقسـم النشـر فيهـا العمـل علـى إخـراج هـذه الرسـالة؛ لمـا فيهـا مـن النفـع العميـم، والخيـر العظيـم.

وهـذهِ نبـذةٌ موجـزةٌ عـن منهجِنَـا في إخـراجِ كتـبِ الشـيخِ رَحِمَهُ اللَّهُ وتحويلَهَـا مـن مـادَّةٍ مسـموعةٍ إلـى نـصٍّ مقـروء، وهـي عمليَّـةٌ قـد تكـونُ عسيرةً أحيانًـا؛ فـلا يَخفى أن المـادةَ الصوتيـةَ الملقـاةِ يعْتَريهـا مـا لا يعْتَـري المصنَّفـاتِ التي قُصـدت بالتأليـفِ وحرَّرهـا مؤلفُوهـا وانْتَقـوا ألفاظَهَـا، إلا أنَّ أسـلوبَ الشيخِ رَحِمَهُ اللَّهُ الفَصيـحِ وطريقتُـهُ في الشـرحِ سـهَّلتْ مُهِمَّتنـا كثيـرًا.

ومِنْ أبرزِ ما قمنا به ما يلي:

- تحريـرُ النـصِّ بحـذفِ المكـرَّر، وتعديـلِ العبـارات الخطابيَّـة إلـى عبـاراتٍ تتناسـبُ مـع كتـابٍ مقـروء، ورَبْـطِ الشَّـرح بالمتـن، وغيـر ذلـك ممـا يحتاجـه العمـل العلمـي في مثـل هـذا.
- مراجعـةُ الكتـاب وضبطُـهُ لُغَوِيًّـا، ووضـعُ علامـات الترقيـم اللازمـة، ونحـو ذلـك.
- تخريجُ الآياتِ والأحاديثِ والآثارِ الواردةِ في الشرح.
- توثيقُ المسائلِ والنقولاتِ بعزوِهَا إلى المصادرِ المعتمدةِ.
- وضْعُ فهارسَ فنيَّة للآياتِ والأحاديثِ والآثار والموضوعاتِ.

وقد اعتمدنا في إخراج متن الرسالة طبعة دار عالم الفوائد، الصادرة ضمن مجموعة آثار الشيخ العلَّامة محمد الأمين الشِّنْقِيْطِيّ، بإشراف فضيلة الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وختامًا: نسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، موافقًا لمرضاته، نافعًا لعباده، وأن يَجْزِيَ الماتن والشارح عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، ويضاعِفَ لهما المثوبة والأجرَ، ويُعْلِيَ درجاتِهما في المهديِّين؛ إنه سميع قريب مجيب.

كما نسأله سبحانه أن يَجْزِيَ كلَّ من ساهم في العمل على هذه الرسالة؛ من الباحثين والفنيين خير الجزاء، ونَخُصُّ بالشكر والدعاء: فضيلة الشيخ أحمد بن عبد الرحمن المهنَّا، وهو من أبرز طلاب الشيخ ابن جبرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ الذي تفضَّل بالاطِّلاع على هذه الرسالة بعد انتهاء العمل فيها، فسدَّد العمل بآرائه القيِّمة، وملحوظاته المفيدة.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبيِّنا محمد، وعلى آله وأصحابه، والتابعين بإحسان إلى يوم الدين.

قِسْمُ ٱلبَحْثِ ٱلعِلْمِيِّ فِي مُؤَسَّسَةِ ابْنِ جِبْرِينَ الخَيْرِيَّةِ



ترجمة مختصرة للشارح سماحة الشيخ العلامة
د. عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١)

اسمه ونسبه:

هو الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن إبراهيم بن فهد بن حمد بن جبرين بن محمد بن عبد الله بن رشيد، من قبيلة بني زيد المعروفين في نَجْد، وأصلهم من مدينة شَقْرَاء، ثم نزح الكثير منهم إلى كثير من المدن والقرى ومنها مدينة القُوَيْعِيَّة.

مولده ونشأته:

ولد الشيخ عام ١٣٤٩هـ، ببلدة مُحيرقة، إحدى قرى القويعية، التابعة لمنطقة الرياض، ونشأ في بلدة مُحيرقة وبلدة الرّين التابعة للقويعية، في أسرة علمية.

طلبه للعلم:

قرأ القرآن على والده الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله الجبرين، وعلى إمام جامع مُحيرقة وهو أحد أعمامه، واسمه: سعد بن عبد الله الجبرين، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فأتم الشيخ حفظ القرآن وتلقى مبادئ العلوم وهو دون العشرين على والده رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ حيث تعلم الفرائض ومبادئ النحو والقراءة في كتب الحديث؛ مثل: «عمدة الأحكام»، و«الأربعين النووية»، ونحوها.

---

(١) ينظر: (أعجوبة العصر)، لابنه أ.د عبد الرحمن الجبرين، و(أبي كما عرفته)، لابنته هيا الجبرين، وسيرة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في موقعه على الإنترنت: http://www.ibn-jebreen.com

ثم في عام ١٣٦٧هـ بدأ بالدراسة على شيخه عبد العزيز الشِّثْرِيّ في المسجد وفي المنزل؛ فقرأ كثيرًا من المتون في التوحيد والفقه والنحو والحديث ونحوها، وقرأ في الشروح كـ «سبل السلام»، و«شرح الأربعين»، والصحيحين، وبعض السنن وكتب الآداب، وكثير من الكتب المطولة سردًا، واستفاد من ذلك كثيرًا.

ثم انتقل مع شيخه الشِّثْرِيّ إلى الرياض في أول عام ١٣٧٤هـ، وانتظم في معهد إمام الدعوة الذي أُسس في ذلك العام، ولتميزه أُلحق بالقسم الثانوي، فكان متفوقًا.

ثم واصل في القسم العالي الذي انتهى منه عام ١٣٨١هـ، وفي أثناء هذه المدة كان يحضر كثيرًا من دروس العلماء في الجامع الكبير بوسط الرياض.

وفي عام ١٣٨٧هـ -مع قيامه بالتدريس- دَرَس في المعهد العالي للقضاء، وأنهى مرحلة الماجستير في عام ١٣٩٠هـ بتقدير جيد جدًّا، ثم سجل الدكتوراه في كلية الشريعة، وانتهى منها عام ١٤٠٧هـ بتقدير ممتاز.

أبرز شيوخه:

١. الشيخ أبو حبيب: عبد العزيز بن محمد الشِّثْرِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان قاضيًا في بلدة الرّين.
٢. سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، مفتي المملكة سابقًا.
٣. سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، مفتي المملكة سابقًا.

٤. الشيخ عبد الرَّزَّاق عفيفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٥. الشيخ محمد الأمين الشِّنْقِيطِيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قيامه بالدعوة والتدريس:

من أول أعماله في الدعوة أنه اختير مع البعثة الذين أُرسلوا للدعوة في الحُدود الشمالية للمملكة برئاسة شيخه عبد العزيز الشِّثْرِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أوائل عام ١٣٨٠هـ لمدة ثلاثة أشهر.

وقد قام بالتدريس النظامي حينما عُين مُدرسًا في معهد إمام الدعوة عام ١٣٨١هـ، ثم في كلية الشريعة إلى عام ١٤٠٢هـ.

كما قام الشيخ بالتدريس التطوعي في كثير من مساجد الرياض، وقام برحلات دعوية وعلمية إلى غالب مدن المملكة، وسجلت له آلاف الساعات الصوتية.

فكان أول قيامه بالتدريس في حدود عام ١٣٦٧هـ؛ حيث قام بتعليم أبناء قريته الرّين القرآن ومبادئ القراءة والكتابة.

ودَرَّس في سنة ١٣٨٤هـ في «دار العلم»، وهي مدرسة خيرية في الرياض.

ودرَّس مدة طويلة طلاب مدرسة تحفيظ القرآن التي كان مديرها الشيخ محمد بن سِنَان، وأغلبهم من اليمن، وجنوب المملكة، فدَرَس كثير منهم عنده الكثير من المتون والشروح.

ودرَّس في الجامع الكبير بالرياض لما أنابه الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان جلوسه بعد المغرب أربعة أيام في الأسبوع.

كما درّس في منزله بحِلَّة الحَمَّادي في حي السّبَالَة، ثم نقل الدروس إلى منزله في حي شُبرا لما انتقل إلى هناك.

ودرّس في عدد من مساجد مدينة الرياض، منها: جامع الرَّاجحي في حي الرَّبْوَة، وجامع الملك خالد، وجامع شيخ الإسلام ابن تيميّة في حي سُلْطَانَة، ومسجد البَرْغَش، وغيرها، ثم جُمعت دروسه في آخر حياته في جامع الشيخ عبد الله الرَّاجحي في حي شُبرا.

الأعمال والمناصب التي شغلها:

١. التدريس في معهد إمام الدعوة من عام ١٣٨١هـ، واستمر في التدريس فيه نحو أربعة عشر عامًا، درّس فيها: الفقه والحديث والتفسير والتوحيد.
٢. التدريس في كلية الشريعة التابعة لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض من عام ١٣٩٥هـ، وكان يتولى الإشراف على البحوث المتعلقة بالعقيدة، والإشراف على رسائل الماجستير والدكتوراه والمناقشة لبعضها.
٣. عضو إفتاء برئاسة البحوث العلمية والإفتاء بالرياض من عام ١٤٠٢هـ.
٤. الاشتراك في التوعية في موسم الحَجّ للإجابة على أسئلة الحُجاج.

كما كان يسعى رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مساعدة المحتاجين والشفاعة لهم وقضاء حوائجهم.

تلاميذه:

تتلمذ على الشيخ وحضر دروسه جموع غفيرة من مختلف الفئات، أما طلاب العلم فكانوا من مختلف الجنسيات؛ فمنهم من حضر الدروس النظامية في معهد إمام الدعوة أو في كلية الشريعة، أو في المساجد والمنزل، وقد تولى كثير منهم مناصب مرموقة، فمنهم:

١. الشيخ إبراهيم بن عبد الله الغَيْث، رئيس هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سابقًا.
٢. الشيخ سليمان بن عبد الله بن مهنا، رئيس المحكمة الكبرى بالرياض سابقًا.
٣. الشيخ عبد الرحمن بن عبد العزيز السديس إمام وخطيب المسجد الحرام والرئيس العام لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي.
٤. الدكتور عبد الله بن عبد الرحمن الشِّثْرِي، وكيل جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية سابقًا.
٥. الدكتور سعد بن عبد الله الحُميد.
٦. الدكتور عبد العزيز بن محمد السَّدْحَان.
٧. الدكتور عبد المحسن بن عبد العزيز العَسْكَر.
٨. الدكتور عبد الله بن عبد العزيز العَنْقَرِيّ.
٩. الدكتور محمد بن حمد المَنِيْع.
١٠. الشيخ عبد الله بن عامر.
١١. الشيخ أحمد بن عبد الرحمن المهنا.
١٢. الدكتور طارق بن محمد الخُويطر.

آثاره العلمية:

بلغت مؤلفات الشيخ المطبوعة في حياته أكثر من مائة وخمسين كتابًا، فمنها:

١. أخبار الآحاد في الحديث النبوي، وهي رسالته للماجستير، مجلد.
٢. تحقيق شرح الزَّرْكَشِيّ على مختصر الخِرَقِيّ، وهي رسالته للدكتوراه، سبع مجلدات.
٣. شرح الأربعين النووية، مجلد.
٤. الرياض الندية شرح العقيدة الطحاوية، خمس مجلدات.
٥. السبك الفريد شرح كتاب التوحيد، مجلدان.
٦. الدرر المبتكرات شرح أخصر المختصرات، أربع مجلدات.
٧. إبهاج المؤمنين شرح منهج السالكين، مجلدان.
٨. التعليقات الزكية على العقيدة الواسطية، مجلد.
٩. النقوش الذهبية على القلائد البرهانية، مجلد.
١٠. الإرشاد شرح لمعة الاعتقاد، مجلد.
١١. وتقوم المؤسسة بالعمل على إخراج تراث الشيخ الذي يتوقع أن يزيد على مائتي مجلد.

وفاته:

توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في العشرين من شهر رجب من عام ١٤٣٠هـ، عن واحد وثمانين سنة، بعد أن ذَاع صِيته وانتشر علمه في أصقاع الدنيا، رحم الله الشيخ وغفر له، وتقبل جهوده وأعماله، وجعل ما قدَّم في ميزانِ أعمالِهِ.



ترجمة موجزة
لسماحة الشيخ العلامة
محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]

هـو محمَّـدٌ الأميـنُ بـنُ محمَّـدِ المختـارِ الجَكَنـيُّ الشِّـنْقِيْطِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بلادهـم التـي يُنْسَبون إليهـا معروفـة في صحـراء إفريقيـا[(٢)]، وقريبـة مـن بـلاد المَالِيِّيـن ومَـنْ حولهـم.

ذُكِرَ أنه وُلِدَ سنة ألف وثلاثمائة وخمس من الهجرة، ونشأ في تلك البـلاد، وأهلُهـا أقـربُ شبهًا إلـى البَـوَادِي الذيـن لا يسـكنون في بيـوت مـن الطيـن ونحـوه، وغالـب بيوتهـم مـن الشَّـعْر؛ ولعـل ذلـك لقلـة ذات اليـد ولعـدم التمكـن.

ثـم بعـد مـا شـبَّ، حُبِّـبَ إليـه العلـمُ والتعلُّـمُ، ورزقـه الله فهمًـا قويًّـا،

(١) هـذه الترجمـة صـدَّر بهـا الشـيخ الجبريـن رَحِمَهُ ٱللَّهُ شـرحه للرسـالة، وقـد أبقيناهـا كمـا هـي، مـع تقديمها قبل الشروع في الشرح. وقد توفي الشيخ محمد الأمين الشِّنْقِيْطِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة ١٣٩٣هـ وترك ميراثًا مميَّزًا من المؤلفات، منها: (أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن)، و(دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)، و(منع جواز المجاز)، و(الأسماء والصفات نقلاً وعقلًا)، و(آداب البحث والمناظرة)، و(مذكرة في أصول الفقه على روضة الناظر)، و(رحلة الحج إلى بيت الله)، و(شرح مراقي السعود)، وغيرها، وصدر مجموع مؤلفات الشنقيطي عن دار عالم الفوائد بمكة المكرمة في ١٩ مجلدًا، بإشراف تلميذه البار: بكر أبو زيد رحمهما الله.
ينظر: الأعلام للزركلي ٦/ ٤٥، وترجمة الشيخ الشِّنْقِيْطِي، لعبد الرحمن السديس، وترجمة ملحقة بآخر كتاب أضواء البيان، لتلميذه الشيخ عطية سالم، وجهود الشِّنْقِيْطِي في تقرير عقيدة السلف، للطويان.

(٢) ينظر: الموسوعة العربية العالمية (٢٤/ ٣٨٩).

وذكاءً ثاقبًا؛ فاجتهَدَ في طلب العلم، وزامَلَ خلقًا كثيرًا من المشايخ في تلك البلاد.

ويذكُرُ بعض من جاء معه من تلك البلاد أنهم يقرؤون في كتبٍ أكثرُها مخطوطٌ، ومنها ما هو مطبوع، ولكنه قليل بالنسبة إلى المخطوط، ولكنهم يجتهدون في طلب العلم، وليس عندهم أنوار كَهْرَبائية، وليس عندهم سُرُجٌ، ويقرؤون إلى نصف الليل، وقراءتُهم على النار التي يُوقِدونها على الحطب، يُوقدون شُعْلة نار، ثم يتحلَّقون حولها ويقرؤون، ويُقْرِئُهم أحد مشايخهم الذين يعلِّمونهم، ويجتهدون في تعليمهم، ومِن جهدهم أنهم يسهرون على التعلم.

هكذا ذُكِرَ لنا، حتى يقول أحدهم: (إنه إذا أمسَكَ الكتابَ بيده، وجعَلَ يقرأ فيه، وخاف أن يَنْعُسَ، فيسقُطَ الكتابُ -: ربَطَ حبلًا فوقه في الخيمة أو في بيت الشَّعْر، وربط يديه فيه؛ حتى إذا نعَسَ لا يسقط الكتاب منه)؛ مِن جدهم واجتهادهم.

قرأ في كتب التفسير وتوغَّل فيها؛ بحيث إنه إذا فسَّر لم يكد يترك صغيرة ولا كبيرة، ولا شاردة ولا واردة، إلا يذكُرُها، وتعلَّم أيضًا اللغة العربية وشواهدَها، ورزَقَهُ الله حفظًا للشواهد من كلام العرب العرباء، وحفظ تلك الشواهد؛ بل حفظ الشعراء الذين قالوها.

وكذلك اهتمَّ بعلم أصول الفقه، وكرَّس جهده فيه، وكان عالمًا في أصول الفقه، وله غَوْرٌ فيه، وكذلك الفقه، ولكنَّ فقهه على المذهب المالكي كأهل تلك البلاد الذين يقتصرون على فقه الإمام مالك، وهو المتمكِّنُ عندهم، فاجتهد في هذه الفنون: فنِّ اللغة العربيَّة، والنحو، والصرف، وما يتعلَّق بهما، وعِلْمِ التفسير، والفقه، وأصول الفقه.

ولما جاء إلى المملكة، ابتدأ بمدينة الرياض، وكانوا قبل ذلك يسمعون عن أهل المملكة، وعن ابن عبد الوهاب أنه مبتدع، وأنه على خطأ، ويقرؤون كتبَ الرّدود التي تُنكِرُ عليه؛ ولذلك يحملون تصوُّرًا خاطئًا عن ابن عبد الوهاب، فلما جاء إلى المملكة، واجتمع بالعلماء، وبحث معهم، صحَّح معتقده أولًا في التوحيد.

يذكُرُ بعض زملائه وبعض تلاميذه الذين جاؤوا معه: أنهم لا يعرفون التوحيد -توحيد العبادة- ولا يَدْرُسُونه؛ بل الأصل أنهم يدرسون الأصولَ وما يدور حول ذلك، صحَّح بعد ما جاء إلى المملكة هذا الاعتقاد.

كذلك: توحيد الأسماء والصفات؛ كان غالب أهل تلك البلاد على معتقد الأشاعرة، يُقِرُّونَ بسبع صفات، وينكرون الصفات الفعليَّة وغيرها؛ كصفة الرضا، والمحبة، والغضب، والعجب، وصفة النزول، والمجيء، والعلو، وما أشبه ذلك، هكذا أخذوا عن مشايخهم.

ولما جاء إلى المملكة، واتَّصَلَ بالعلماء ورجع إلى مؤلَّفاتهم صحَّح معتقده، وعرف أنَّ ما كان عليه هو ومشايخه هناك كان خطأً، فأصبح من أهل السنة الذين يُوثَقُ بهم.

ولما جاء للرياض، صار يدرِّس في المعهد العلمي الذي أُسِّسَ سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة وألف، أُسْنِدَ إليه التفسير، وكان يجالس المشايخ ويُهْدُونه من مؤلَّفات أهل السنة والأئمة؛ كابن القيم، وابن تيميّة، وابن عبد الوهاب؛ فتحسَّن فكره، وتحسَّنت عقيدته؛ فأصبح عالمًا في هذه الأصول كلها.

أتذكَّر أني قَدِمتُ الرياض في سنة أربع وسبعين وثلاثمائة وألف، وهي السنة التي افتُتِحَ فيها معهد إمام الدعوة، وكنت بصحبة الشيخ عبد العزيز -أبي حبيب الشثري- رَحِمَهُ اللَّهُ، فكنَّا نحضر في بعض الليالي دروسًا يُلْقيها، أو تفسيرًا يُلْقيه في مسجد الشيخ محمد بن إبراهيم، ويتعجَّبون من حفظه وسعة تفسيره.

أحبَّه الشيخ أبو حبيب رَحِمَهُ اللَّهُ، وطلب أن يزوره كلَّ جمعة، فكنت أصاحبه، نزوره يوم الجمعة الساعة الثامنة، أو السابعة والنصف، ونُلْقي عليه بعض الأسئلة، فيجيبنا بما فتح الله عليه، ونجد في جوابه توسُّعًا وذكرًا للشواهد والأدلَّة، وما أشبه ذلك، إلا أنه يعتذر بثقل الدروس التي أُسْنِدَتْ إليه.

كان المعهد في تلك السنة في مكان يقال له: أُمُّ قُبَيْس[1]، فكان يتضجَّر من ثِقَلِ الدروس؛ حيث إنه يذهب هناك، ويبقى خمس ساعات يدرِّسُ في هذا المكان.

وكانت كلية الشريعة وكلية اللغة العربية قد افتُتِحَتَا في سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة وألف، وفي سنة خمس وسبعين أُسْنِدَ إليه في كلية الشريعة تدريس التفسير، وغيره من دروس أصول الفقه ونحوه.

---

(١) حي من أحياء الرياض القديمة، يقع غرب البطحاء، اشتهَرَ بالعديد من المعالم المهمَّة؛ مثل: قصور بعض الأمراء، ودار الكتب الوطنية، كان مزرعة للإمام عبد الله بن فيصل، وكان مبنى المعهد العلمي في البداية في أُمِّ قُبَيْس في قصرٍ من القصور الطينيَّة، وهو قصر الأمير فيصل بن عبد العزيز خارج سور الرياض القديمة، ويعرف بقصر أُمِّ قُبَيْس، تحوَّل فيما بعد إلى قصر للضيافة، ثم مقرٌّ للمعهد العلمي، وقد استمر المعهد العلمي في هذا القصر سنتين تقريبًا، قبل أن ينتقل إلى مقرِّه الكائن جنوب بلديه البطحاء. ينظر: موقع الملك سعود بن عبد العزيز آل سعود رَحِمَهُ اللَّهُ.
http://www.kingsaud.org/ar/history/article/a/1236

في أثناء السنة الأولى لمجيئنا للرياض سنة أربع وسبعين وثلاثمائة وألف، طلب منَّا الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ أن نذهب ونقرأ عليه في أصول الفقه نبذة صغيرة: (الورقات) لإمام الحرمَيْن الجُويني، نقرأ عليه يومًا في الأسبوع، ويُمْلي علينا خلاصة التقرير، ونتعجَّب من قوَّة كلامه، وتوسُّعه، ومعرفته بالشواهد، ويُملِي الخلاصة؛ لأنَّا لا نَقْدِرُ أن نحفظ كلامه الكثير، واحتفظنا بخلاصة بعض ما أملاه علينا في شرح (الورقات)، قدر ورقة منها أو ورقة ونصف، وكلامه الذي أملاه موجود عندي، وعرفنا بذلك قوة أسلوبه، وما هو عليه، وما يحفظه.

ذكَرَ عند الشيخ أبي حبيب رَحِمَهُ اللَّهُ أنه ألقى محاضرة في المسجد النبوي -وهي هذه المحاضرة- فطلب منه الشيخ أبو حبيب رَحِمَهُ اللَّهُ أن يُمْلِيَها لتُطْبَعَ، فوافق على ذلك.

ولأنَّ حروفهم التي يكتبون بها مغايرة لحروفنا، وهو يقرأ في كتبنا، لكنْ نحن يصعُبُ علينا أن نقرأ في كتبهم وبحروفهم، قال الشيخ أبو حبيب: (نُحِبُّ أن تكون بحروفنا)، فأرسلني الشيخ أبو حبيب إليه ليُمْلِيَها عليَّ، فجلستُ عنده بعد العصر، وإذا عنده رؤوس المسائل- العناوين- في ورقة، وأخذ يُملي عليَّ بعد العصر، إلى أن كتبت هذه الرسالة في مجلس واحد، ولمَّا كتبتُها أخذ يقرؤها ليتفقَّدَها عن الخطأ، فوجد فيها نقص كلمة أو كلمتين، وخطأً في بعض الكتابة، فأصلَحْتُها، وبعدما كتبناها تبرَّع أحد أهل الثروة بطبعها، فطُبِعَتْ أوَّلَ مرة على نفقة الشيخ عبد العزيز بن إبراهيم الشَّقْري رَحِمَهُ اللَّهُ، وكان ممن يُحِبُّ الخير، ولمَّا طُبِعَتْ، وانتشرت في رسالة صغيرة، رآها كثير من الناس، وأحبُّوا إعادة طبعِها، فطُبِعَتْ مرة

ثانية، ورُبَّما ثالثة[1]، ولكنْ بعد موته لم يشتغل بها أحد، وإن كانت كُتُبُهُ لقيت عناية.

كنَّا نسأله عن بعض المسائل التي تتعلَّق بالتفسير، فكان يذكر جهودَهُ في جمع التفاسير التي يكون فيها فوائد، سأله أحد التلاميذ عن آية وآية أخرى؛ كأنَّ فيهما شيئًا من التناقض، فعزم على تأليف كتاب في هذا، فألَّفه وسمَّاه: (دَفْع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)؛ يعني: الآيات التي يُوهِمُ ظاهرها أن بينها تعارضًا؛ وهذا الكتاب أيضًا طُبِعَ مرتَيْنِ أو ثلاثًا، وفيه جمع بين الآيات التي يُوهِمُ ظاهرها أن فيها شيئًا من التعارض؛ مثل: قوله تعالى في سورة فُصِّلَتْ لمَّا ذكر خلق السموات والأرض: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [فصلت: ٩، ١٠]، وقال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾، إلى قوله: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [فصلت: ١١، ١٢]؛ فظاهر الآية: أنَّ خلق الأرض قبل خلق السموات، ولكنْ تخالفُها الآيات التي في سورة النازعات، وهي قول الله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧-٣٠]؛ فظاهرها: أن الأرض خُلِقَتْ بعد ذلك، فجمع بينهما، وإن كان أيضًا قد جمع بينهما غيره من العلماء المتقدِّمين[2].

ثم رَغِبَ إليه بعض المشايخ أن يؤلِّف تفسيرًا يتعلَّق بالآيات المجملة، التي وُضِّحَتْ في أماكن أخرى من القرآن؛ فابتدأ في تأليف هذا الكتاب الكبير: (أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن)، ولكنْ للأسف

---

(١) تقع هذه الرسالة في المجلد الحادي عشر من مجموع مؤلفات الشنقيطي الذي سبق ذكره.

(٢) ينظر: دفع إيهام الاضطراب (ص١٢)، وتفسير الطبري (١/ ٤٦٤)، وتفسير ابن كثير (١/ ٢١٥).

فإنه لم يُكْمِلْهُ؛ لأنه في آخر أمره صَعُبَتْ عليه الكتابة والقراءة، ولكنْ بذل فيما كتبه جهدًا كبيرًا بالأخص في المسائل الخلافية.

وحيث إنه على المذهب المالكي، فإنه قد توغَّل فيه، فكان يأتي بما يؤيِّد اختياره، كما في مسألة الطلاق؛ فمعروف أن الجمهور يقولون: (إن الطلقات الثلاث تقع كلُّها إذا جمعها)[١]، واختار شيخ الإسلام[٢] -وهو اختيار الشيخ ابن باز أيضًا[٣]- أنه لا يقع إلا واحدة، فتعرَّض لذلك وتوسَّع فيه عند تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وكتب نحو عشرين صفحة على هذه الآية، ورجَّح ما اختاره من أنها تقع ثلاثًا[٤].

ولمَّا وصل إلى سورة الحج، طلَبَ منه المشايخ أن يتوسَّع فيما يتعلَّق بالحج؛ فتوسَّع توسُّعًا كبيرًا، وكتب نحو مجلد، يتعلَّق بالحج، وصفاته، وشروطه، وما أشبه ذلك!

والآيات التي في سورة الحج نحو صفحة ونصف؛ تبدأ من قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦]، إلى آخر الآيات؛ فتوسَّع في ذلك وبيَّن ما ظهر له، ولم يتعصَّبْ لذلك، إلا أنه يرجِّحُ: أن القِرَانَ أفضلُ من التمتُّعِ، ولكلٍّ اختيارُه، ولكنَّه ذكر الأدلة[٥].

---

(١) ينظر: اختلاف الأئمة العلماء لابن هُبَيْرة (٢/ ١٦٧)، وتفسير القرطبي (٣/ ١٢٩).
(٢) ينظر: مجموع الفتاوى (٣٣/ ١٣).
(٣) ينظر: مجموع فتاوى ابن باز (٢١/ ٣٩١).
(٤) ينظر: أضواء البيان (١/ ١٨٧).
(٥) ينظر: أضواء البيان (٥/ ٦٤).

شرحُ رسالةِ

الإسلامُ دِينٌ كاملٌ



شرح المقدمة

قال الشِّنْقِيْطِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[الحمـدُ للهِ ربِّ العالميـنْ، والصـلاة والسـلام على نبينـا محمَّـد وعلـى آلـه وصحبـه، ومـن دعـا بدعوتـه إلـى يـوم الدِّيـنْ، وبعـد:

فهذه محاضرة ألقيتُها في المسجد النبوي؛ بطَلَبٍ من مَلِكِ المغرب، فطلَبَ مني بعضُ إخواني تقييدها لنشرها، فلَبَّيْتُ طلبَهُ راجيًا من الله أن ينفع بها].

الشَّـرح

بسـم الله، والحمـد لله، والصـلاة والسـلام علـى رسـول الله، وعلـى آلـه وصحبـه، وبعـد:

لـم يذكـر الشيخ في هـذه المقدِّمـة الشـهادتين، واكتفـى بالحمـد، والصلاة والسـلام علـى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(والحَمْدُ): ذكرُ محاسنِ المحمود، مع حبِّه، وتعظيمه، وإجلاله.

ويعرِّفـه آخـرون، فيقولـون: **(الحمـد)**: فعـلٌ يُنبِـئُ عـن تعظيـمِ المنعِـمِ؛ بسـبب كونـه منعِمًـا علـى الحامـد وغيـره[1].

وقـد افتتـح الله تعالى سـورة الفاتحة بهذه الكلمـة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، وتوسَّـع المفسِّـرون فيمـا يتعلق بهذه الجملة، وأطالـوا في ذلك[2].

(١) ينظر: تفسير الرازي (١/ ١٩٧)، واللباب، في علوم الكتاب (١/ ١٧٧).
(٢) ينظر: تفسير البغوي (١/ ٧٣)، وتفسير القرطبي (١/ ١٣٦).

(والصلاةُ) مِن الله على عبدِهِ: ثناؤُهُ عليه في الملأ الأعلى؛ هكذا رواه البخاري عن أبي العالية[١]؛ فصلاةُ الله على عبده: ثناؤُهُ عليه في الملأ الأعلى، أي: بين الملائكة.

(والسلامُ): هو التسليمُ مِن الآفات وما أشبهها.

وقد أمرَنا الله بالصلاة والسلام على نبيِّنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، وسُئِلَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كيف نصلِّي عليك؟ فأرشدهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الصلاة الإبراهيمية[٢]، التي تُقرَأُ في آخر الصلاة، ثم قالوا -لمَّا قال الله تعالى: ﴿صَلُّواْ عَلَيۡهِ﴾-: (عرَفْنا أننا نَعْجِزُ عن بلوغ الحقيقة التي أُمِرْنا بها، فلم نجد إلا أن نسأل الله تعالى أن يُصلِّي ويسلِّم عليه).

وقد ورد ما يدلُّ على فضل الصلاة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال أحد الصحابة: **يَارَسُولَ اللهِ، إِنِّي أُكْثِرُ الصَّلَاةَ عَلَيْكَ، فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلَاتِي؟ فَقَالَ: «مَا شِئْتَ»، قَالَ: قُلْتُ: الرُّبُعَ؟ قَالَ: «مَا شِئْتَ؛ فَإِنْ زِدتَّ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»، قُلْتُ: النِّصْفَ؟ قَالَ: «مَا شِئْتَ؛ فَإِنْ زِدتَّ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»، قَالَ: قُلْتُ: فَالثُّلُثَيْنِ؟ قَالَ: «مَا شِئْتَ؛ فَإِنْ زِدتَّ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»، قُلْتُ: أَجْعَلُ لَكَ صَلَاتِي كُلَّهَا، قَالَ: «إِذَنْ تُكْفَىٰ هَمَّكَ، وَيُغْفَرُ لَكَ ذَنْبُكَ»**[٣].

---

(١) ذكره البخاري في صحيحه معلَّقًا، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ الآية، ووصله إسماعيل القاضي في كتاب فضل الصلاة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (ص ٧٩ رقم ٩٥)، وينظر: فتح الباري (٨/ ٥٣٢).

(٢) أخرجه البخارى، كتاب الدعوات، باب الصلاة على النبي، حديث رقم (٦٣٥٧)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي، حديث رقم (٤٠٦)؛ من حديث كعب بن عُجْرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٢١٢٤٢)، والترمذي، كتاب صفة يوم القيامة، باب ما جاء في صفة أواني الحوض، حديث رقم (٢٤٥٧)؛ من حديث أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال الترمذي: «حديث حسن».

وهـذا يـدلُّ علـى ترغيـب المسـلم في أن يُكْثِرَ من الصـلاة عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكذلـك على آلـه وصحبه(١).

(وآلـه): قيـل: إنهـم أقاربـه وأهـل بيتـه، ويدخُـلُ فيهـم: زوجاتـه، وأعمامـه الذيـن أسـلموا: العبَّـاس، والحـارث، وحَمْزة، وكذلـك أولادهـم: أولاد العبَّاس كلِّهـم، ومـن أسـلم مـن أولاد أبـي طالـب: علـيٍ، وجعفـر، وعَقِيـل، وكذلـك مـن أسـلم مـن أولاد أبـي لَهَـبٍ، وكذلـك أقاربـه كلُّهـم داخلـون في (آلـه).

ولكـنْ ذهبـت الرافضـة: إلـى أن (آلـه): علـيٌّ واثنـان مـن أولاده، وزوجتُهُ، وأولادُ الحُسَـيْن، هـؤلاء عندهـم (الآل) وأهـلُ البيـت، وينكـرون كـونَ العبَّاسِ مـن أقاربـه وآلـه، وينكـرون أولادَ العبَّـاس كلِّهـم، وأولادَ الحـارث، وأولادَ عَقِيـل، وأولادَ جعفـر؛ أنكـروا كل هـؤلاء.

وهنـاك قـول آخـر: أن (آلـه) هـم أتباعـه علـى دينـه، أي: أنَّ كلَّ أتبـاع النبـي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلـى يـوم القيامـة مِـن آلـه، ويرجِّـح ذلـك بعـض العلمـاء؛ كالشـوكاني في أول (نَيْـل الأوطـار)(٢)، وأنشـد قـول بعـض الشـعراء(٣):

آلُ النَّبِـيِّ هُـمُ أَتْبَـاعُ مِلَّتِهِ ... مِنَ الأَعَاجِمِ وَالسُّودَانِ وَالْعَـرَبِ
لَـوْ لَـمْ يَكُـنْ آلُـهُ إِلَّا قَرَابَتَـهُ ... صَلَّـىٰ المُصَلِّي عَلَىٰ الطَّاغِي أَبِي لَهَبِ

---

(١) قـال الشـيخ ابـن جِبْريـن رَحِمَهُ اللهُ في الإجابـة عـن أسـئلة هـذا الكتـاب: (هكـذا أرشـده إلـى أن يجعـل دعـاءه كلـه في الصـلاة؛ فيبـدأ دعـاءه بالصـلاة علـى النبـي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويختمـه أيضًـا بالصـلاة عليـه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لعـل هـذا هـو المـراد).

(٢) ينظر: نيل الأوطار (٢/ ٣٢٧).

(٣) القائـل هـو: نِشْـوان بن سـعيد بن سـعد بن أبـي حِمْيَر بـن عُبَيْد بـن القاسـم الحِمْيَـري، نحـوي لغـوي، نسَّـابة، مؤرِّخ، وكان مـن علمـاء الاعتـزال، لـه مصنفـات عديـدة، منهـا: الحـور العيـن، وشـمس العلـوم ودواء كلام العـرب مـن الكلـوم، وملـوك حميـر وأقيـال اليمـن وشـرحها، تـوفي سـنة (٥٧٣هـ)، ينظـر: الأعـلام للزركلـي (٨/ ٢٠)، وطبقـات النسـابين (ص ١١٦)، والبيـت في كتابـه شـمس العلـوم (١/ ٣٧٧).

يقول الشِّنْقِيْطِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فهذه محاضرة ألقيتُها في المسجد النبوي؛ بطَلِبِ من مَلِكِ المغرب[١]). يظهر أن ذلك كان في حدود سنة خمس وسبعين، أو ست وسبعين وثلاثمائة وألف.

ثم قال: (فطلَبَ مني بعضُ إخواني تقييدها لنشرها، فلَبَّيْتُ طلبَهُ راجيًا من الله أن ينفع بها).

وهم مجموعة، منهم: الشيخ عبد العزيز بن مَرْشَد[٢]، والشيخ عبد العزيز أبو حبيب، والشيخ عبد العزيز الشَّقْري، وغيرهم، طلبوا تقييدها فلبَّى طلبهم.

ولما طُبِعَتْ هذه الرسالة أوَّل مرَّة اشتهَرَتْ، وكان كثيرون يقرؤونها ويجعلونها ضمن دروسهم ومحاضراتهم، وأتذكَّر في حدود سنة إحدى وتسعين -أو قريبٍ منها- كان الشيخ محمد بن حسن الدريعي يُلقِي محاضراتٍ في المسجد الحرام، ورأيته يقرأ هذه الرسالة قبل أن يبدأ في المحاضرة، فقال: (أضمِّنُ محاضرتي كمال الدين، وأستفيدُ من هذه المحاضرة التي ألقاها الشيخ الشِّنْقِيْطِيُّ)؛ فكثير من المشايخ استفادوا منها.

---

(١) هو: محمد الخامس بن يوسف الشريف، ملك المغرب، ولد في: ١٠/ ٨/ ١٩٠٩م، حكم المغرب في الفترة ما بين: ١٩٢٧م - ١٩٦١م، توفي في: ٢٦/ ٢/ ١٩٦١م. ينظر: موقع ويكيبيديا على الشبكة العنكبوتية (الإنترنت).
https://ar.wikipedia.org/wiki/%D985%%D8%AD%D985%%D8%AF_%D8%A7%D984%%D8%AE%D8%A7%D985%%D8%B3_%D8%A8%D986%_%D98%A%D988%%D8%B3%D981%

(٢) عبد العزيز بن صالح بن مرشد، من علماء الرياض، زاهد عابد، وهو من أعلى أهل نجد إسنادًا، ولد عام ١٣١٣هـ وتوفي عام ١٤١٧هـ. ينظر: علماء نجد لعبد الله البسام (٣/ ٣٧٢) رقم (٣٤٨).

قال الشِّنْقِيْطِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[قال الله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣]؛ ذلك اليومُ: يومُ عَرَفةَ، وهو يومُ جُمُعَةٍ في حَجَّةِ الوداع، نَزَلتْ هذه الآية الكريمة والنبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واقفٌ بعَرَفاتٍ عشيَّةَ ذلك اليوم، وعاش صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد نزولها إحدى وثمانين ليلةً.

وقد صرَّح الله تعالى في هذه الآية الكريمة: أنه أكمل لنا دينَنَا؛ فلا ينقُصُهُ أبدًا، ولا يحتاج إلى زيادة أبدًا؛ ولذلك ختَمَ الأنبياءَ بنبيِّنا -عليهم صلوات الله وسلامه جميعًا- وصرَّح فيها أيضًا بأنه رَضِيَ لنا الإسلامَ دينًا؛ فلا يَسْخَطُهُ أبدًا].

الشَّرح

هذه الرسالة تتعلَّق بهذه الآية الكريمة من أوائل سورة المائدة: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣]، وفي «الصحيحَيْنِ»: أَنَّ رَجُلًا مِنَ اليَهُودِ قَالَ لِعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، آيَةٌ فِي كِتَابِكُمْ تقرؤونها، لَوْ عَلَيْنَا مَعْشَرَ اليَهُودِ نَزَلَتْ، لَاتَّخَذْنَا ذَلِكَ اليَوْمَ عِيدًا، قَالَ: أَيُّ آيَةٍ؟ قَالَ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣]، قَالَ عُمَرُ: «قَدْ عَرَفْنَا ذَلِكَ اليَوْمَ، وَالمَكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ قَائِمٌ بِعَرَفَةَ يَوْمَ جُمُعَةٍ»[١].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه، حديث رقم (٤٥)، ومسلم، كتاب التفسير، حديث رقم (٣٠١٧).

بمعنى: أن المسلمين في يوم عَرَفَةَ يفرحون، ويتقرَّبون بالأعمال الصالحة؛ فأهلُ الموسم يَحُجُّون فيه، ويقفون في ذلك المشعر، وأهل البلاد الأخرى يصومونه ويعترفون بفضيلته، ويُكْثِرون فيه من الأعمال الخيرية، وكذلك يوم الجمعة عيد، ويسمَّى: عِيدَ الأسبوع.

يقول الشِّنْقِيْطِيُّ: (**ذلك اليومُ: يومُ عَرَفَةَ، وهو يومُ جُمُعَةٍ في حَجَّةِ الوداع، نزَلَتْ هذه الآية الكريمة، والنبيُّ ﷺ واقفٌ بعَرَفَاتٍ عشيَّةَ ذلك اليوم، وعاش ﷺ بعد نزولها إحدىٰ وثمانين ليلةً**)[1].

مات ﷺ في شهر ربيع الأول في الثانيَ عشَرَ منه.

يقول الشِّنْقِيْطِيُّ: (**وقد صرَّح الله تعالىٰ في هذه الآية الكريمة: أنه أكمل لنا ديننَا؛ فلا ينقُصُهُ أبدًا، ولا يحتاج إلىٰ زيادة أبدًا؛ ولذلك ختم الأنبياءَ بنبيِّنا -عليهم صلوات الله وسلامه جميعًا-**).

فإن قوله: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، إشارة إلى أن الدين الإسلامي كامل لا يحتاج إلى تكميل، ولا إلى زيادة، وذلك إمَّا بالقرآن: أن الله تعالى بيَّن فيه ما يحتاج إليه - كما ذكر في هذه الرسالة -، وإما بالبيان النبوي: أن النبي ﷺ بيَّن ما يحتاج الناس إليه.

ثم إن الشيخ الشِّنْقِيْطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ ذكر في بعض كتبه معنى بيان القرآن، أي: أن القرآن بيَّن كلَّ شيء يُحْتَاجُ إليه، وذلك في (أضواء البيان)؛ حتى إنه قال:

---

(١) قال الشيخ ابن جِبْرين رَحِمَهُ اللَّهُ في الإجابة عن أسئلة هذا الكتاب: (لعله يريد: إحدى وتسعين؛ فقد عاش ﷺ عشرين يومًا من شهر ذي الحجة، وثلاثين من شهر محرَّم، وثلاثين من شهر صفر، واثني عشر يومًا من شهر ربيع الأول؛ فمجموعها: اثنان وتسعون، أو واحد وتسعون؛ لأنه يمكن أن بعض الأشهر ناقص).

(إنَّ القرآن دلَّ على الهندسة)؛ واستدلَّ على ذلك بقوله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ٣٠ لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ [المرسلات: ٣٠، ٣١]، يعني: في ثلاثِ شُعَبٍ، يقول: إن هذا فيه قاعدة هندسية، وهي: أن الشكل المثلَّث لا ظل له[1].

والحاصل: أن هذا دليل على أن الله أكمل للناس في القرآن ما يحتاجون إليه، وبيَّن ذلك النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

يقول الشِّنْقِيْطِيُّ: (وصرَّح فيها أيضًا: بأنه رَضِيَ لنا الإسلامَ دينًا؛ فلا يسخطه أبدًا)، أي: بقوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾.

ففي الآية ثلاث بشارات:

الأولىٰ: أكمَلْتُ لكم دينكم.

والثانية: أتمَمْتُ عليكم نعمتي.

والثالثة: رَضِيتُ لكم الإسلام دينًا.

فإكمال الدين: ﴿أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾، بمعنى: أنه ما بَقِيَ شيء تحتاجون إليه إلا وقد بُيِّنَ لكم.

ولا شك أن ذلك ضروري؛ فإن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ هو آخر الأنبياء، وإذا كان آخر الأنبياء، فلا بدَّ أن يُكْمِلَ دينه؛ فشريعته آخر الشرائع، وإتمام النعمة إشارة إلى النعمة الدينيَّة، وهي تحصُلُ لكلِّ من تمسَّك بالدين، أي: أن الله تعالى يُتِمُّ عليهم نعمته:

(١) ينظر: أضواء البيان (٢/ ٤٣٢).

أولًا: بالتوحيد، وهذه نعمة كبيرة.

وثانيًا: بالعقيدة السليمة؛ وهذه أكبر نعمة(١).

وقبل ذلك وبعده: الهدايةُ للإسلام، وكذلك أيضًا: هداية الله تعالى لمن وفَّقه، فاهتدى واستقام على الطريقة السليمة السويَّة، وسَلِمَ من الانحراف، وتمسَّك بالطاعات؛ فهداه الله وابتعد عن المحرَّمات -صغيرِها وكبيرِها-؛ فهذا كلُّه من النعمة.

﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾؛ فإذا رَضِيَ هذا الإسلام، فلا يسخطه أبدًا، مع أن الأنبياء كلَّهم دينهم الإسلام؛ ولذلك قال الله تعالى عن إبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، ثم قال عن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال لبنيه: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣]؛ فدلَّ على أن يعقوب أوصى أولاده -ومنهم يوسف- بقوله: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

وكذلك ذكر الله الإسلام عن بقية الأنبياء؛ وذلك لأن حقيقة الإسلام هي: الإذعان، والانقياد، والاستسلام لله تعالى؛ بأن يمتثل العبد ما أُمِرَ به، ويترُكَ ما نُهِيَ عنه، طوعًا واختيارًا، دون تكلُّف، أو كراهية، أو تثاقُل؛ فهكذا تكون حقيقة المسلم.

---

(١) قال الشيخ ابن جِبْرين رَحِمَهُ اللَّهُ في الإجابة عن أسئلة هذا الكتاب: (الفرق بين التوحيد والعقيدة السليمة: أن العقيدة ما يَعْقِدُ عليه القلب من الأمور الغيبية؛ أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر، وغيرها من الأمور التي أخبر الله تعالى بها، وأخبر بها رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأما التوحيد، فتدخل فيه هذه الأنواع: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات؛ لأن التوحيد هو: إفراد الله بالعبادة، الذي هو توحيد العبادة، ففرق بين مسمى العقيدة الذي هو الاعتقاد، ومسمى التوحيد الذي هو العمل).

روي في حديث -وإن كان فيه ضعف-: «**الْمُؤْمِنُونَ هَيِّنُونَ لَيِّنُونَ كَالْجَمَلِ الْأَنِفِ؛ إِنْ قِيدَ انْقَادَ، وَإِنْ أُنِيخَ عَلَىٰ صَخْرَةٍ اسْتَنَاخَ**»[1]، وهذا مَثَلٌ واقعٌ على المسلم الحقيقيِّ؛ فإنه ينقاد لأوامر الله ولو كانت ثقيلة؛ ولذلك أصبح الصحابة مَضْرِبَ مثَلٍ لهذا الانقياد؛ والدليل على ذلك: أنه لمَّا أمرَهم بالجهاد -مع ما فيه من تَرْكٍ للأموال والأولاد، ومع ما فيه من التعرُّض للقتل، أو الجراحة- استجابوا لذلك، وقاموا مجاهدين، وبذَلُوا أنفسَهُمْ لنصر الدين، وفَدَوُا النبيَّ ﷺ بأنفسهم، إلى أن أظهر الله هذا الدين؛ فهذا دليل على أنهم استسلموا لله استسلامًا كُلِّيًّا.

❧

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٣٨٧)، والطبراني في مكارم الأخلاق (١٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٧٧٧)؛ من حديث مكحول مرسلًا؛ قال السيوطي في الجامع الصغير (٩١٦٣): (ضعيف).

قال الشِّنْقِيْطِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[ولـذا صـرَّح بأنـه لا يقبـل غيـره مـن أحـد؛ قـال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمـران: ٨٥]، ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمـران: ١٩].

وفي إكمـالِ الديـنِ وبيـانِ جميـعِ أحكامِـهِ كلُّ نِعَـمِ الدارَيْـن؛ ولـذا قـال: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾.

وهـذه الآيـة الكريمـة نـصٌّ صريـح في أنَّ ديـن الإسـلام لـم يَتْـرُكْ شـيئًا يَحْتـاجُ إليـه الخلـْقُ -في الدنيـا ولا في الآخـرة- إلا أوضحـه وبيَّنـه كائنًـا مـا كان.

وسـنضرب لذلـك المثَـلَ ببيـانِ عَشْـرِ مسـائل عظـام، عليهـا مـدار الدنيـا، مـن المسـائل التـي تَهُـمُّ العالَـمَ في الدارَيْـن، وفي البعـض تنبيـه لطيـف علـى الكلِّ:

- **الأولىٰ**: التوحيد.
- **الثانية**: الوعظ.
- **الثالثة**: الفَرْقُ بين العمل الصالح وغيره.
- **الرابعة**: تحكيم غير الشرع الكريم.
- **الخامسة**: أحوال الاجتماع بين المجتمع.
- **السادسة**: الاقتصاد.
- **السابعة**: السياسة.
- **الثامنة**: مشكلة تسليط الكفَّار على المسلمين.
- **التاسـعة**: مشـكلة ضَعْـف المسـلمين عـن مقاومـة الكفَّـار في العَـدَدِ والعُـدَد.
- **العاشرة**: مشكلة اختلاف القلوب بين المجتمع.

ونوضِّح علاجَ تلك المشاكل من القرآن؛ وهذه إشارة خاطفة إلى بيان جميع ذلك بالقرآن؛ تنبيهًا به على غيره].

الشَّرح

ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ دليلًا على أهمية دين الإسلام آيتَيْنِ في سورة آل عمران:

الأولى: قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، أي: الدين الصحيح الذي لا يَقْبَلُ الله غيره، فلا دين غير الإسلام، ومن لم يحقِّق الإسلام، فليس بمسلم؛ أذكُرُ أني ناقشتُ نصرانيًّا لبنانيًّا في الرياض، عرَضْتُ عليه الإسلام، فكان يقول: النصرانية إسلام، نحن على الإسلام، ديننا إسلام! فأنكَرْتُ عليه بعض العقائد، ومع ذلك أصرَّ على أنها من الإسلام.

والثانية: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، أي: الإسلام الصحيح، بخلاف من يقول: إنه مسلم، وليس صادقًا، أي: أنَّ كلَّ من طلب أو التمس دينًا غير دين الإسلام، ممن يَدِينُ بأديانٍ يسمِّيها إسلامًا، لكنها ليست حقيقة، فليس بمُسلِم، ولا يُقبَلُ منه، وهو في الآخرة من الخاسرين.

فنقول للنصارى: أنتم من الخاسرين، وكذلك نقولُ لليهود، والبُوذيِّين، والقاديانيين، والهندوس، والشيوعيين، والقبوريين، والمشركين، والبعثيين، والنُّصَيْريِّين، والمنافقين: كلكم من الخاسرين؛ لأنكم على غير الإسلام.

يقول الشِّنْقِيْطِيُّ: (وفي إكمالِ الدين وبيانِ جميعِ أحكامِهِ كلُّ نِعَمِ الدارَيْن؛ ولذا قال: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾).

إذا أكمل الله تعالى لنا الدين، وبيَّن لنا أحكامه، فتلك أكبر نعمة في الدنيا والآخرة؛ ولذلك قال: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾.

يقول الشِّنْقِيْطِيُّ: (وهذه الآية الكريمة نصٌّ صريح في أنَّ دين الإسلام لم يَتْرُكْ شيئًا يَحْتَاجُ إليه الخلق -في الدنيا ولا في الآخرة- إلا أوضحه وبيَّنه كائنًا ما كان).

دين الإسلام هو الذي يؤخذ من القرآن الكريم والسنة النبوية؛ وذلك لأن السنة تبيِّن القرآن، وتفسِّره، وتدُلُّ عليه، وتعبِّر عنه، والنبي ﷺ هو المبيِّن عن الله؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وقد بيَّن ذلك بيانًا واضحًا حتى قال أبو ذرٍّ رضي الله عنه: **«لَقَدْ تَرَكَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَمَا يَتَقَلَّبُ فِي السَّمَاءِ طَائِرٌ إِلَّا ذَكَّرَنَا مِنْهُ عِلْمًا»**(١).

وذكر بعض الصحابة: **«أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّىٰ بِهِمُ الْفَجْرَ، وَصَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَخَطَبَنَا حَتَّىٰ حَضَرَتِ الظُّهْرُ، فَنَزَلَ فَصَلَّىٰ، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَخَطَبَنَا حَتَّىٰ حَضَرَتِ الْعَصْرُ، ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّىٰ، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَخَطَبَنَا حَتَّىٰ غَرَبَتِ الشَّمْسُ»، فَأَخْبَرَنَا بِمَا كَانَ وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ؛ فَأَعْلَمُنَا أَحْفَظُنَا**(٢).

---

(١) أخرجه الطيالسي في مسنده، حديث رقم (٤٨١)، وأحمد في المسند، حديث رقم (٢١٤٣٩)، والبزار، حديث رقم (٣٨٩٧)، وأبو يعلى في مسنده، حديث رقم(٥١٠٩).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة، حديث رقم (٢٨٩٢)؛ من حديث عمرو بن أخطب رضي الله عنه بنحوه.

فالصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الذين فُسِّرَتْ لهم هذه الآيات، وذُكِرَتْ لهم هذه الأحكام، قد علَّموها وبيَّنوها لمن بعدهم، ولم يكتموها، واعتبروها أمانة عندهم.

ومعلوم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونصَحَ للأمة، وتركهم على مثل البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعده إلا هالك؛ كما أخبر بذلك[١].

وأوصى أصحابه أن يبلِّغوا؛ فقال: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً**»[٢]، أي: مَن حفظ آية فلا يكتُمْها، بل يبلِّغها.

وكذلك قال: «**مَنْ دَعَا إِلَىٰ هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا...**»[٣].

وقال: «**فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَىٰ مِنْ سَامِعٍ**»[٤].

وقال: «**رُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرُ فَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ**»[٥].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند، حديث رقم (١٧١٤٢)، وابن ماجه، المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، حديث رقم (٤٣)؛ من حديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال أبو نعيم في المستخرج على صحيح مسلم (١/ ٣٦) : «حديث جيِّد من صحيح حديث الشاميين».

(٢) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذُكِرَ عن بني إسرائيل، حديث رقم (٣٤٦١)؛ من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة، حديث رقم (٢٦٧٤)؛ من حديث أبي هريرة.

(٤) أخرجه البخارى، كتاب الحج، باب الخطبة أيام مِنًى، حديث رقم (١٧٤١)؛ من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه أحمد في المسند، حديث رقم(٢١٥٩٠)، وأبو داود، كتاب العلم، باب فضل نشر العلم، حديث رقم (٣٦٦٠)، والترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع، حديث رقم (٢٦٥٦)، وابن ماجه، المقدمة، باب من بلَّغ علمًا، حديث رقم (٢٣٠)؛من حديث زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال الترمذي: (حديث حسن).

ولمَّا خطبهم في حجة الوداع، وبيَّن لهم ما يحتاجون إليه، قال: «**وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟**»، قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ: بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ، يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ، وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ: «**اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ**»[1]؛ فعُرِفَ بذلك أن النبي ﷺ قد بلَّغ الرسالة، وأن الصحابة قد بلَّغوها.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وسنضربُ لذلك المثَلَ ببيانِ عَشْرِ مسائل عظام، عليها مدار الدنيا، من المسائل التي تَهُمُّ العالَمَ في الدارَيْن، وفي البعض تنبيه لطيف على الكلِّ)**.

وهذه المسائل إذا نظرنا إليها وجدناها جامعة، وقد ذكر هذه المسائل العَشْرَ مجملة، ثم ذكرها مفصَّلة، وذكر أنه سوف يوضِّح علاج هذه المشاكل من القرآن الكريم.

وذكر أن هذه إشارة خاطفة إلى بيان جميع ذلك بالقرآن؛ تنبيهًا به على غيره، بمعنى أنه اختصر في البيان، ولو توسَّع لاحتمل مجلَّدات؛ ولكنه اقتصر على الإشارات.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، حديث رقم (١٢١٨)؛ من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المسألة الأولى

التوحيد



قال الشِّنْقِيْطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

[المسألة الأولىٰ: وهي التوحيد:

فقد عُلِمَ باستقراء القرآن أنه منقسم إلى ثلاثة أقسام:

النوع الأول: توحيده جَلَّ وَعَلَا في ربوبيته؛ وهذا النوعُ من التوحيد جُبِلَتْ عليه فِطَرُ العقلاء؛ قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ...﴾ الآية [الزخرف: ٨٧]، وقال: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾، إلى قوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١]، والآيات بنحو ذلك كثيرة.

وإنكارُ فرعون لهذا النوع في قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]؛ مكابَرةٌ وتجاهُلٌ؛ بدليل قولِهِ: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ...﴾ الآيةَ [الإسراء: ١٠٢]، وقولِهِ: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

ولهذا كان القرآنُ يَنزِلُ بتقرير هذا النوع من التوحيد بصيغة استفهام التقرير؛ كقوله: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقولِهِ: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وقولِهِ: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ [الرعد: ١٦]، ونحوِ ذلك؛ لأنهم يُقِرُّونَ به.

وهذا النوعُ من التوحيد لم ينفع الكفارَ؛ لأنهم لم يوحِّدوه جَلَّ وَعَلَا في عبادته؛ كما قال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]، ﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ ...﴾ الآيةَ [يونس: ١٨]].

الشَّرح

بدأ بالتوحيد؛ وذلك لأن العبادات لا تصحُّ إلا مع التوحيد؛ فالتوحيد شرط لقبول كل عبادة، وبالأخص توحيد العبادة، ولكنْ لا بدَّ أيضًا من العقيدة.

ذكر أن التوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات؛ وهذا مشهور.

لكنَّ بعض المتأخرين من المتعنِّتين أنكروا على العلماء، وقالوا: تقسيم التوحيد إلى هذه التقاسيم بدعة، ليس عليه دليل، وأوَّل من جاء به وقاله ابن القيم، أو ابن تيمية، أو ابن عبد الوهاب! وسمعنا كثيرًا منهم من يجادِلُ في هذا التقسيم.

فنقول: إنَّ الأدلة واضحة على هذا التقسيم، الأدلة التي ذكرها الشيخ الشِّنْقِيْطِيُّ في تقرير توحيد الربوبية، وكذلك ما سيذكره في أنواع التوحيد، كلُّها واضحة الدلالة على أن كلًّا منها قسم من أقسام التوحيد، لابد أن يعتقده المسلم، ويجزم به، وإلَّا لم يكن موحِّدًا، ولم تُقبَلْ منه أعماله؛ هذا هو الصحيح.

ثم إن ابن تيمية جعل التوحيد قسمين -وتبعه في ذلك ابن القيم-: توحيد في المعرفة والإثبات، وتوحيد في الطلب والقصد[1]، ويدخُلُ في التوحيد الأول: توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات؛ فإنه توحيد

(١) ينظر: الفتاوى الكبرى (٥/ ٢٤٤)، والصواعق المرسلة (٢/ ٤٠١)، ومدارج السالكين (٣/ ٤١٧).

المعرفة، يعني: معرفة الله تعالى وإثبات صفاته. أما الثاني -وهو توحيد الألوهية- فإنه توحيد الطلب والقصد.

ويسمِّيها أهل العلم بما يدُلُّ عليها؛ فتوحيد الربوبية والأسماء والصفات يسمُّونه: التوحيد العِلْميَّ الخبريَّ الاعتقادي؛ هذه التعاريف الثلاثة تصدق عليه:

* فهو توحيدٌ عِلْميٌّ، بمعنى: أنه يؤخذ من الأدلة، فمن علمها صار عالمًا بهذا التوحيد.
* وتوحيدٌ خَبَريٌّ؛ لأنه يعتمد على إخبار من الله تعالى، ومن نبيه ﷺ ومن أنبيائه كذلك.
* وهو أيضًا توحيد اعتقادي.

يقول الشِّنْقِيْطِيُّ عن توحيد الربوبية: (وهذا النوع من التوحيد جُبِلَتْ عليه فِطَرُ العقلاء)، أي: أنهم يُقِرُّونَ به ولا ينكرونه، والأدلة على ذلك كثيرة؛ مثلُ هذه الآيات التي ذكرها المؤلِّف، والآيةِ التي في آخر سورة الزخرف: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وفي السورة نفسها في أولها: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]؛ يعترفون بأن الذي خلق السموات والأرض هو العزيز العليم.

وفي سورة العنكبوت: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]؛ يعترفون بأن ذلك لله، هو الذي خلق السموات والأرض، وسيَّر الشمس والقمر وسخَّرهما.

ثم قال في السورة نفسها: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ

ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، أفلا تعقلون مَن الذي ينزِّل المطر؟! ومن الذي يحيي الأرض؟! يقولون: هو الله، يعترفون بذلك، وكذلك في سورة لقمان: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥] يعترفون بذلك، وفي سورة المؤمنون: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩]، أي: كيف تُصرَفونَ عن عبادتِهِ وتجعلون معه أندادًا؟!

وكذلك في سورة يونس قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١]، إذا كنتم تعرفون أن ذلك كله لله، فكيف لا تتقونه وتعبدونه؟!

فهم يعترفون أن الذي يَرْزُقُهم من السماء هو الله، حيث يُنزِّلُ عليهم الماء، ويَرْزُقُهم من الأرض بإنبات النبات، ويملك السمع، فإذا ذهب السمع فلا أحد يرُدُّهُ إلا الله، ويملك البصر، ويُخْرِجُ الحيَّ من الميِّت، فيُخْرِجُ النبات الحي من الأرض الميتة، ويُخرِجُ الميت من الحيِّ، مثاله: أن يخرج الثمر من الشجر؛ فالثمر شبه ميت، ونحو ذلك.

﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾، أي: من الذي يسير الأفلاك؟! ويقلِّب الليل والنهار؟! ومن خلق هذه النجوم التي نشاهدها وسَيَّرها؟! ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، إذا كنتم تُقِرُّونَ بذلك، فكيف لا تتقون؟! فدلَّ على أنهم يعترفون بذلك.

ومع ذلك: فإن الله تعالى قد قرَّر هذا النوع، وبيَّنه بأدلة كثيرة تدُلُّ على أنه بحاجة إلى التأمُّل والتفكُّر.

ولمَّا نزل قول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، رُوِيَ أنهم قالوا: ما الدليل على أنه إله واحد؟ فنحن لنا آلهة كثيرة؛ فنزلَتِ الآية التي بعدها، وفيها دلالات عظيمة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤][(١)].

اعتبِرُوا بهذه الآيات واستدِلُّوا بها على أن الذي سخَّرها وخلقها إله واحد، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

وتكرَّر في القرآن كثيرًا ذِكْرُ هذه الأدلة بلفظ الآيات؛ كقوله تعالى في سورة الروم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ إلى آخر الآيات [الروم: ٢٠-٢٣].

آيات عظيمة يَلْفِتُ الأنظار إليها، وكذلك في السورة نفسها: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم: ٤٦]؛ هذه أيضًا آيات ودَلَالات.

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (٣/ ٥)، وتفسير ابن كثير (١/ ٤٧٦).

وكذلك أيضًا سورة القيامة وما بعدها آيات ودَلَالات في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٧-٤٠]، آياتٌ عقليَّةٌ يتدبَّرها ويعقلها كل ذي عقل، وفي السورة التي بعدها: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الانسان: ١]، يعني: أنه كان معدومًا: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الانسان: ٢-٣]، هذه أدلة واضحة على أن الخالق هو الذي يستحِقّ العبادة.

كذلك في السورة التي بعدها: قولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٥-٢٦]، إلى آخر الآيات، وفي السورة التي بعدها: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النبأ: ٦-٨]، إلى آخر الآيات، وفي السورة التي بعدها: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ [النازعات: ٢٧-٢٨]، إلى آخر الآيات، وفي السورة التي بعدها: قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ [عبس: ٢٤-٢٦]، إلى آخر الآيات، دلالاتها واضحة؛ ولذلك يتكلَّم العلماء على هذه الآيات، ويأخذون منها عظم قدرة الله.

فسَّر ابن كَثِيرٍ[1] قول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢]؛ بأن الخالق لهذه الأشياء هو المستحِقُّ للعبادة، وذكَرَ بعض الأدلة من كلام العرب، تدل على عظم قدرة الخالق؛ فقد سُئِلَ بعض الأعراب: ما الدليل على أن الله موجود؟ فقال: (إن البَعْرةَ تدُلُّ على البعيرْ، وإن الأثَرَ يدُلُّ على المَسِيرْ؛

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٩٧).

فسماءٌ ذاتُ أبراجْ، وأرضٌ ذاتُ فِجَاجْ، وبحارٌ ذاتُ أمواجْ، أَلَا تدُلُّ على الخبيرِ البصيرْ؟!).

وذكَرَ أيضًا أنه نُقِلَ عن الإمام أبي حنيفة: (أن بعض الملاحدة جاؤوا إليه يشكّكونه في وجود الخالق، فقال: دعوني أفكّر في أمرٍ بلغني، ذُكِرَ لي أن هنا سفينةً خشبيةً ليس فيها أحد، وأنها تتوجَّه بنفسها إلى أن ترسو في البلد، ثم تحمِّلُ نفسها من الأرزاق والأطعمة والأدوات، وليس فيها أحد، ثم تسير بنفسها إلى أن تصل إلى بلد آخر، ثم تُنزِلُ ما فيها من الحمولة، ليس فيها أحد! فقال أولئك الملاحدة: هذا شيءٌ لا يُصَدِّقُهُ العاقل؛ لأن السفينة جماد، خشب، فكيف تتوجَّه بهذا؟! فقال: وَيْحَكُمْ، ألا تتفكَّرون في هذه المخلوقات؛ هل وُجِدَتْ بالصدفة؟! هذه الشمس التي تطلع ثم تغرب، وتتمايز؛ في الصيف لها مسير، وفي الشتاء لها مسير، وهذا القمر وهذه آثاره، وهذه الرياح، وهذه السحب، وهذه الجبال، وهذه الحيوانات، وهذه البحار، هل وُجِدَتْ صدفةً؟! هل أوجَدَتْ نفسها؟! أَلَا يُستدَلُّ بها على أن هناك مَن أوجدها؟! فعرفوا أنهم مخطؤون، فتابوا وأسلموا على يدي أبي حنيفة)[1].

ذكر ابنُ كَثِيرٍ عند هذه الآية: أنَّ الإمام أحمد سُئِلَ عن الدليل الدال على وجود الخالق؟ فقال: (هاهنا حصنٌ حصينٌ أملس، ليس له باب ولا منفذ، ظاهره كالفضة البيضاء، وباطنه كالذهب الإبريز، فبينا هو كذلك إذ انصدع جداره، فخرج منه حيوان، سميع، بصير، ذو شكل حسن، وصوت مليح؛ يعني بذلك: البيضةَ إذا خرَجَ منها الدجاجة)[2].

(١) ينظر: شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (ص ٣٥).
(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٩٧).

فهكذا يُقِيمُ العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ على وجود الخالق هذه الآيات.

وأورد ابن كَثِير أيضًا عند هذه الآية قول ابن المعتز[١]:

فَوَاعَجَبًا كَيْفَ يُعْصَىٰ الْإِلَـ ـهُ أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاحِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ وَاحِدُ

وغير ذلك من الأدلة.

وقد تكلَّم أيضًا ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ عن الأدلة العقلية في كتابه: (التبيانْ في أقسام القرآنْ)؛ فإنه لما أتى على قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١]؛ فصَّل ما في الأرض من الآيات، ثم لمَّا جاء إلى قوله: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ﴾، توسَّع في الكلام عنها، وبدأ من رأس الإنسان كيف يكون آية، وما فيه من الشَّعْر، والأدمغة، ونحوها، كذلك منافذه، وجوارحه، وحواسُّه، إلى أن وصل إلى قدمَيْه، تكلم عن ذلك بكلام واسع، مَن قرأه، عَجِبَ منه، وعلم أن خلق الإنسان آية عظيمة[٢].

وكذلك في كتابه: (مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة)، تكلَّم في المجلد الأول[٣] كلامًا عظيمًا في الأدلة الكونية العقلية، التي من تأمَّلها عرَفَ قدرة من أوجدها، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خالق كل شيء، وأن هؤلاء الشيوعيين الذين ينكرون قدرة الخالق، ووجوده، شبه بُلَهَاء لا عقول لهم، لم يتفكَّروا في هذا الكون.

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٩٧)، وطبقات الشعراء لابن المعتز (ص٢٠٧).
(٢) ينظر: التبيان في أقسام القرآن (ص٢٩٥).
(٣) ينظر: مفتاح دار السعادة (١/ ٢١٥).

ذكر لنا الشيخ عبدالرحمن بن محمد الدَّوْسَري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: أن بعض الأطباء المعاصرين كتب كتابًا واسعًا سمَّاه: «الإنسان ذلك المجهول»[٢]، الإنسان عالَمٌ مجهول، يعني: خلقه وتركيب أعضائه وما فيها، فأقرب شيء إليك نَفْسُكَ فتأمَّل فيها، لذلك نقول: (إن أدلة توحيد الربوبية أدلة فطريَّة)؛ كما ذكر الشيخ.

بَقِيَ من النوع الأول: ذِكْرُ من أنكر توحيد الربوبية، الذين ينكرونه قديمًا يُسَمَّوْنَ: الدهريِّين[٣]، وحديثًا يُسَمَّوْنَ: الشيوعيِّين، وقد اشتهر أن فرعون أنكره؛ ولذلك قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، فجعل نفسه إلهًا وربًّا، ثم لمَّا قال موسى: ﴿إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزخرف: ٤٦]، قال فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]، أنكر أن يكون هناك ربٌّ، ولكنَّ هذه مكابرة وتجاهل؛ بدليل ما ذُكِرَ في سورة الإسراء، قال له موسى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، أخذ موسى يقرِّره: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤]، ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦]، ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨]، ولمَّا لم يُنِبْ، قال -أي: فرعون- كما حكى الله تعالى: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]؛ فجاءه موسى بالآيات، فألقى عصاه، ونزَعَ يده، وأراه الآيات، وذكر الله تعالى أنه لما بعثه بتسع آيات إلى فرعون وقومه عرَفُوها، ولكنْ جحدوها مكابرة؛ ولذلك قال تعالى في سورة النمل: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

---

(١) ستأتي ترجمته.
(٢) الكتاب من تأليف الدكتور ألكسيس كاريل، وترجمة عادل شفيق.
(٣) الدَّهْريُّ: من يقول بقدم الدهر وإسناد الحوادث إليه. ينظر: لسان العرب (٤/ ٢٩٢).

ولمَّا ذكر الله تعالى قصة عاد وثمود، وأجملها بقوله: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [العنكبوت: ٣٨]، ثم قال: ﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾، أي: على بصيرة، ولكنهم معانِدون.

ولهذا يقول الشيخ هنا: (ولهذا كان القرآنُ يَنزِلُ بتقرير هذا النوع من التوحيد)، أي: توحيد الربوبية (بصيغة استفهام التقرير؛ كقوله: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾)، هكذا تقول الرسل لأممهم: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [إبراهيم: ١٠].

كذلك قوله في سورة الأنعام: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤]، هذا على وجه الإنكار، وكذلك في سورة الرعد: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الرعد: ١٦]، وما أشبه ذلك؛ لأنهم يُقِرُّونَ به.

لكنَّ هذا النوع لم يُدخِلْهم في الإسلام، ولم ينفعهم؛ بل صار حجةً عليهم بالتوحيد الذي أنكروه؛ ألا وهو: توحيد العبادة؛ يقول الله تعالى في سورة يوسف: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]، دلَّ على أنهم يؤمنون، ولكن يُشْرِكون، تسألهم: من خلقهم؟ فيقولون: الله، وتراهم يَدْعُونَ غيرَه! ثم ماذا يريدون من معبوداتهم؟ الأصل: أنهم يعبدونها على ما ذُكِرَ في قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]؛ فدلَّ على أنهم يعترفون أنهم ينفعونهم عند الله.

وكذلك في سورة يونس: قول الله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٨]، أتخبرون الله بشيء يجهله! - تعالى الله - فهم يعترفون بذلك.

قال الشِّنْقِيْطِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[**النوع الثاني**: توحيده جَلَّ وَعَلَا في عبادته، وهو الذي وقَعَتْ فيه جميعُ المعارك بين الرسل والأمم، وهو الذي أُرسِلَتِ الرسلُ لتحقيقه، وحاصلُهُ: هو معنى (لا إله إلا الله)؛ فهو مبنيٌّ على أصلين هما: النفيُ، والإثباتُ من (لا إله إلا الله).

فمعنى النفي منها: خَلْعُ جميع أنواع المعبودات غيرَ الله تعالى في جميع أنواع العبادة، كائنةً ما كانت، ومعنى الإثبات منها: هو إفرادُه جَلَّ وَعَلَا وحدَهُ بجميع أنواع العبادة على الوجه الذي شرَعَ أن يُعبَدَ به، وجُلُّ القرآنِ في هذا النوع: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ الآيةَ [البقرة: ٢٥٦]، ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٨]، والآياتُ في هذا كثيرة جدًّا].

الشَّرح

النوع الثاني: هو توحيد الله جَلَّ وَعَلَا في عبادته، وهو التوحيد الذي وقعت فيه الخصومة بين الرسل وأممهم، وجميعُ المعارك وقعت في هذا التوحيد - توحيد الإلهية، أو توحيد العبادة - ويُسمَّى: التوحيد العملي؛ لأنه عمَلٌ، ويُسمَّى: التوحيد القَصْدي، و: التوحيد الطلبي، و: التوحيد الإرادي؛ لأنه مقصودٌ من العباد ومرادٌ منهم، أي: أراد الله منهم هذا العمل،

وهو الذي أرسل الله تعالى الرسل لتحقيقه والدعوة إليه، وهو معنى (لا إله إلا الله).

و(لا إله إلا الله) تشتمِلُ على ركنَيْن: النفي، والإثبات؛ (لا إلَهَ): نافيًا جميع ما يعبد من دون الله، (إلا الله): مثبتًا العبادة لله.

والنفيُ حقيقةً: خَلْعُ جميع أنواع المعبودات، غيرَ اللهِ، في جميع أنواع العبادة، كائنةً ما كانت تلك المعبودات.

وقد كان المشركون يعبدون الصالحين؛ كما في قول الله تعالى: ﴿ مَاكَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[آل عمران: ٧٩]؛ فأخبر بأنه لا ينبغي لبشر أن يقول هذه المقالةَ، وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ﴾[آل عمران: ٨٠]، يعني: معبوداتٍ، ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران: ٨٠]؛ فدلَّ على أن هناك من يعبُدُ الملائكةَ، ومَن يعبُدُ النبيِّينَ ويَتَّخِذُهم أربابًا من دون الله.

كذلك كانوا يعبُدُونَ الأشجار والأحجار، ومن الأحجار: (اللَّاتُ) التي في الطائف، قالوا: إن تحتَها قبرَ رجل صالح، كان يَلُتُّ السَّوِيقَ للحُجَّاج[(١)]، فعكفوا على قبره، ثم عبَدُوا الصخرة التي دفن تحتها. و(العُزَّى): شجَراتٌ في وادي نَخْلة، بين مكة والطائف، كانوا يعبدونها، ويسمعون منها كلامًا؛ وذلك لأن حولها شياطين يكلِّمونهم: (افعلوا كذا، تحصلوا على كذا وكذا)[(٢)]، وكانوا يفتخرون بها، حتى إنَّ أبا سفيان في

(١) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾، حديث رقم (٤٨٥٩) موقوفًا على ابن عباس رضي الله عنهما. وينظر: كتاب الأصنام لابن منذر الكلبي (ص١٦).
(٢) ينظر: كتاب الأصنام (ص١٦)، وتفسير القرطبي (١٧/ ٩٩).

غـزوةِ أُحُـدٍ أخَـذ يرتجِزُ ويقـولُ: (لنـا العُـزَّى، ولا عُـزَّى لكـم!)؛ فأمرهـم النبـي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقولـوا: «اللهُ مَوْلَانَـا، وَلَا مَوْلَـىٰ لَكُـمْ!»[١].

وكذلـك: (مَنَـاةُ): بنايـةٌ في المشـلَّلِ عنـد قُدَيْـدٍ[٢]، كانـوا يُحْرِمُـونَ مـن عندهـا، وكانـوا يعبدونهـا.

وتوجد غيرها أصنام كثيرة، حتى ذُكِرَ أنه كان حول المسجد الحرام ثلاثمائة وستون صنمًا[٣]، ولمَّا دخل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة فاتحًا جعَلَ يَطْعُنُها بِعُودٍ كان بيده، ويقولُ: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١]، ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩][٤]؛ فحُطِّمَتْ وكُسِّرَتْ.

ولـم تشـتهِرْ عبادة القبور في القرون الفُضْلى؛ بل بدأت عند الرافضة في القرن الرابع، حين عبدوا قبرَ الحسين -ويسمُّونه: كربلاء- وقبرَ عليٍّ في العراق -ويسمونه: النَّجَف-، ولا يزالون إلى الآنَ يعظِّمون تلك الأماكن، ويطوفون بها، ويذبحون عندها، ويدعونها من دون الله، وفي غيبتهم ينادون: ياحسينُ، ياعليُّ، دائمًا.

ثم فشا ذلك في القرون المتأخِّرة، وقد أدرك شيخ الإسلام ابنُ تيميَّة شيئًا من ذلك، وألَّف فيه كتابَهُ المشهور: (اقتضاءُ الصراطِ المستقيمْ، مخالفةَ أصحابِ الجحيمْ)، ورسالتَهُ: (قاعدةٌ جليلهْ، في التوسُّلِ والوسيلهْ)، وغيرها من مؤلَّفاته.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب، وعقوبة من عصى إمامه، حديث رقم (٣٠٣٩)؛ من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) بين المدينة ومكة. معجم البلدان (٥/ ٢٠٤). وينظر: صحيح البخاري (٣/ ٦)، حديث رقم (١٧٩٠)، وكتاب الأصنام (ص١٣).

(٣) ينظر: أخبار مكة للأزرقي (١/ ١٢١).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب أين ركَّز النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الراية يوم الفتح، حديث رقم (٤٢٨٧)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب إزالة الأصنام من حول الكعبة، حديث رقم (١٧٨١)؛ من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وتكلَّم في ذلك أيضًا: ابن القيم في (إغاثة اللهفان)، وتوسَّع في بيان هذا الشرك، واشتَدَّ الأمرُ واستمَرَّ إلى عهد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ورأى أنهم قد وقعوا في الشرك الصريح، فصرَفُوا العبادة لمخلوقات؛ فكان ينكر عليهم؛ ولأجل ذلك عادَوْهُ.

قَالُوا لَهُ: يَا فَاجِرًا يَا كَافِرًا ... مَا ضَرَّهُ قَوْلُ الْعُدَاةِ الْحُسَّدِ
قَالَتْ قُرَيْشٌ قَبْلَهُمْ لِلْمُصْطَفَىٰ: ... ذَا سَاحِرٌ ذَا كَاهِنٌ ذَا مُعْتَدِي
قَالُوا: يَعُمُّ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعَهُمْ ... بِالْكُفْرِ قُلْنَا: لَيْسَ ذَا بِمُؤَكَّدِ
الشَّيْخُ شَاهَدَ بَعْضَ أَهْلِ جَهَالَةٍ ... يَدْعُونَ أَصْحَابَ الْقُبُورِ الْهُمَّدِ
تَاجًا وَشَمْسَانًا وَمَا ضَاهَاهُمَا ... مِنْ قُبَّةٍ أَوْ تُرْبَةٍ أو مَشْهَدِ[1]

وذكر في كتابه (كَشْفِ الشُّبُهات)[2] هذه القبور: قبر تاج، قيل: إنه قرب الخَرْج، وقبر شَمْسان، وقبر يوسف، وقبر إدريس، يَدَّعون أنها قبور أولياء[3]، وفي العُيَيْنةِ قبر يقولون: إنه قبر زيد بن الخطاب[4]؛ فصاروا يعبدونها، واشتهر ذلك في أوساط هذه البلاد، وفي أطراف البلاد الإسلامية كلِّها.

وسببُ الغلوِّ فيها هم: الصوفيَّة، الذين ابتدعوا عبادة الأولياء، وادَّعَوْا أن الوليَّ أشرفُ من النبيِّ؛ فكانوا يقولون:

---

(١) هذه أبيات من قصيدة للشيخ مُلَّا عِمْران بن علي بن رضوان، يرد فيها على مفتريات بعض المعادين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب. ينظر: عقيدة محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي (٢/ ١٠٨٢)، وكشف غياهب الظلام، عن أوهام جلاء الأوهام (١/ ١٤٠)، والضياء الشارق، في رد شبهات الماذق المارق (١/ ٧١).

(٢) ينظر: كشف الشبهات (ص٤٠).

(٣) ينظر: فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ (١/ ١٣٤)، والدرر السنية، في الأجوبة النجدية (٢/ ١٢٠).

(٤) ينظر: تاريخ ابن غنَّام (ص ١٧٣).

مَقَـــامُ النُّـبُــــوَّةِ فِي بَـــرْزَخٍ فُوَيْقَ الرَّسُـــولِ وَدُونَ الْوَلِي[١]

يقـول: (النبـوَّة مقامهـا الوسـط، والرسـالة مقامهـا الأسـفل، والولايـة مقامهـا الأعلـى)! فلذلـك يعبـدون مـن يدَّعـون أنهـم أوليـاء.

أتذكَّـر أنَّـي كنـت في موسـم الحـج، في عَرَفَـةَ، فقابلنـي سـوداني، يقـول: ياعبد القـادر أنجنـا، ياعبد القـادر انصرنـا، ياعبد القـادر أعطنـا؛ فتعجَّبـت منـه، وسـألته: مـاذا يملـك عبد القـادر؟!

فقال: لا تنـزل قطرة من السماء إلا بـإذن عبد القـادر، ولا تنبُـتُ حبـةٌ في الأرض إلا بـإذن عبد القـادر.

قلـت: فمـن الـذي يملـك ذلـك قبـل أن يجـيء عبدالقـادر؟ أليـس عبد القـادر وُلِـدَ ثـم مـات؟! لا شـك أنـه مخلـوق، وأن المخلـوق لا يملـك شـيئًا، فهـو مثـلُ غيـره، والحكايـات التـي تُنقَـلُ عنـه كلهـا مكذوبـة.

وهكـذا لعـب الشـيطان بهـم، فكـم مـن الأوليـاء عنـد الصوفيـة يعبدونهـم، مثـلًا: التِّيجَانِيَّـة[٢] لهـم أوليـاء، والنَّقْشَـبَنْدِيَّة[٣] لهـم أوليـاء،

---

(١) البيـت يُعـزى لابـن عربـي ولـم نجـده في مظانـه، وقـال د. رشـاد سـالم في تحقيـق الصفدية (١/ ٢٥٢): (لـم أعثـر علـى هـذا البيـت، لكـن وجـدت بيتًـا بمعنـاه في لطائـف الأسـرار لابـن عربـي، ونصـه:

سَـــماءُ النُّبُـــوَّةِ في بَـــرزَخ دُويـنَ الوَلـيِّ وفَـوقَ الرَّسُـولِ).

(٢) التيجانية: فرقـة صوفيـة يؤمـن أصحابهـا بجُملـة الأفكار والمعتقـدات الصوفيـة، ويزيـدون عليهـا: الاعتقـاد بإمكانيـة مقابلـة النبـي ﷺ مقابلـةً ماديَّـة، واللقـاءِ بـه لقـاءً حسيًّـا في هـذه الدنيـا، وأن النبـي ﷺ قـد خصَّهـم بصـلاة (الفاتـحِ لِمَا أُغلِق)! التي تحتل لديهم مكانة عظيمة. للاستزادة ينظر: الموسوعة الميسرة (١/ ٢٨١).

(٣) النقشـبندية: فرقـة صوفيـة، تنسـب إلـى الشـيخ بهـاء الديـن محمد بـن محمـد البخـاري، الملقـب بشـاه نقشـبند (٦١٨-٦٩١هـ)، وهـي طريقـة كالشـاذلية، انتشـرت في فـارس، وبـلاد الهنـد، وآسـيا الغربيـة. ينظـر: الموسـوعة الميسـرة (١/ ٢٦٧).

والرِّفَاعِيَّة[1] لهم أولياء، وهكذا، فلما جاء الشيخ محمد بن عبد الوهاب جدَّد التوحيدَ؛ ولذلك عادَوْهُ عداوة شديدة، ولكنْ أظهره الله تعالى، ونصره، ونصر مَنْ نصره.

فنقول: هذا التوحيد هو الذي بعث الله تعالى به رسلَه، وأمرهم أن يدعوا إليه؛ ولأجل ذلك بدؤوا دعوتهم به؛ قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ثم قال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٦٥].

وهكذا قال شعيب، وقال صالح، وكلُّ نبيٍّ يقول: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، كانوا يُسَمُّون معبوداتِهم آلهةً، ولمَّا قال لهم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٠-٧٤]؛ فاتَّبَعوا آباءهم: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [الصافات: ٦٩-٧٠]. وهكذا الذين في عهد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فإنهم تَمَسَّكُوا بما أَلْفَوْا عليه آباءهم، ولو قرؤوا القرآن لوجدوا أنه يأمر بالتوحيد، ويأمر بعبادة الله وحده، وينهى عن عبادة غيره، بأي نوعٍ من أنواع العبادة.

ولأجل ذلك جمع الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ في (كتاب

---

(١) الرفاعية: فرقة صوفية تنسب إلى أبي العباس أحمد بن أبي الحسين الرفاعي (ت٥٤٠هـ)، ويطلق عليها: البطائحية؛ نسبةً إلى مكان ولاية بالقرب من قرى البطائح بالعراق، وينسُجُ حوله كُتَّابُ الصوفية - كدأبهم مع من ينتسبون إليهم - الأساطير والخرافات؛ بل ويرفعونه إلى مقام الربوبية؛ ومن هذه الأقوال: (كان قطب الأقطاب في الأرض، ثم انتقل إلى قطبية السموات، ثم صارت السموات السبع في رجله كالخلخال). ينظر: طبقات الشعراني (ص١٤١)، وقلادة الجواهر (ص٤٢)، ولشيخ الإسلام ابن تيميه رَحِمَهُ اللَّهُ رسالة عن البطائحية في مجموع الفتاوى (١١/ ٤٤٥).

التوحيد) الردَّ على هؤلاء الذين يَدْعُونَ غير الله؛ فقال - مثلًا -: (بابٌ: من الشرك لُبْسُ الحَلْقةِ والخيطِ ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه)، (باب: ما جاء في الرُّقَى والتمائم)، وذكر فيه: أن الرُّقَى والتمائم والتِّوَلَةَ شركٌ، وقال: (بابٌ: من تبرَّك بشجرة أو حجر أو نحوهما)، يعني: أن التبرُّك بذلك يعتبر شركًا، ثم قال: (بابٌ: من الشرك الذبح لغير الله)، (بابٌ: من الشرك النذر لغير الله)، (بابٌ: من الشرك أن يستغيث بغير الله، أو يدعو غيره).

ثم ذكر بابًا[1] يتعلَّق برُتْبةِ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ مع أنه أفضل الخلق، ومع ذلك قال لأقاربه: **«يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا»**[2]؛ فإذا كانت هذه حال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكيف بعبد القادر؟! وكيف بالحُسَيْن وعليٍّ؟! وكيف بالبَدَوِيِّ، وابن عَلْوان[3]، ونحوهم من الذين يُدْعَوْنَ من دون الله؟!

فالمسلم يعرف أن جميع أنواع العبادة لله؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ

---

(١) ينظر: كتاب التوحيد (ص٤٣).

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري، كتاب الوصايا، باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب، حديث رقم (٢٧٥٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، حديث رقم (٢٠٦)؛ من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أحمد بن عَلْوان، صفي الدين أبو العباس الصوفي اليماني، ولد في أواخر القرن السادس من الهجرة، قرأ شيئًا من النحو واللغة، ونظم الشعر، وعمل كاتبًا في بعض الدواوين السلطانية، وتوفي في شهر رجب سنة (٦٦٥هـ)، ودفن بقرية يفرس من أعمال جبل حبشي بمحافظة تعز، وتقام زيارة سنوية لضريحه في منتصف شهر ربيع الأول من كل عام، باسم: (يوم الجمع المبارك). ينظر: الأعلام للزركلي (١/ ١٧٠).

لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن: ١٨]؛ فالدعاء عبادة؛ كما قال ﷺ: «**الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ**»، وقرأ قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠][(١)].

بدأ الآية بـ: ﴿ٱدْعُونِيٓ﴾، وختمها بـ: ﴿عِبَادَتِي﴾، وبعدها بآيات: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ [غافر: ٦٦]؛ فدلَّ على أن: الدعاء عبادة؛ وهذا دليل على أن من دعا غير الله، فإنه مشرك.

وكذلك: الخوف؛ والرجاء؛ فقد ذكر الأدلة على أنهما من العبادات التي لا تصلُحُ إلا لله، ويُرادُ: خوف السر، والرجاء في السر.

والاستعانة بالله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، والاستعاذة بالله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١]، والاستغاثة بالله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]، يعني: فيما لا يَقْدِرُ عليه إلا الله وحدَه، والتوبةُ إلى الله، والاستسلام له: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ ﴾ [الزمر: ٥٤].

وهكذا جميع أنواع العبادة كلُّها لا تصلح إلا لله وحده؛ فلذلك أمر الله جميع الرسل بأن يتمسَّكوا بذلك، ويدعوا إليه أقوامهم؛ ودليل ذلك قوله تعالى في سورة النحل: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، وهذا معنى (لا إله إلا الله)؛ فقوله: ﴿أَعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، هو: الإثبات، ﴿وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، هو: النفي.

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا

(١) أخرجه أحمد في المسند، حديث رقم (١٨٣٥٢)، وأبو داود، كتاب الصلاة، باب الدعاء، حديث رقم (١٤٧٩)، والترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة، حديث رقم (٢٩٦٩)، وابن ماجه، كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء، حديث رقم (٣٨٢٨)، من حديث النعمان بن بَشِير رضي الله عنه، قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

﴿فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]؛ فكلُّ الرسل يُوحِي الله تعالى إليهم بمعنى (لا إله إلا الله)، ويأمرهم بالعبادة، وهم يأمرون أقوامهم بعبادة الله.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ﴿يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾، أي: بكُلِّ ما يُعْبَدُ من دون الله، والطاغوتُ: مُشتَقٌّ من الطغيان، وهو: مجاوزة الحد، ﴿وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾، أي: يوحِّدِ الله تعالى، وقال تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، أي: أن جميع الرسل، ومن بقي على دينهم، لو سألتهم، لَمَا وَجَدتَّ أحدًا يرخِّصُ أن يجعل مع الله آلهة أخرى، ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، كذلك: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٨]، والآيات في هذا كثيرة.

وإذا تتبَّعنا القرآن وجدناه يقرِّر هذا؛ مثل قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يونس: ١٠٦]، كلُّ الذين يُدْعَوْنَ من دون الله لا ينفعون ولا يضرُّون، ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦]، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٣]، خطابٌ لكل مسلم، وكذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

وكلمة: (لا إله إلا الله)، و(لا إله إلا هو)، و(لا إله إلا أنا)، و(لا إله إلا أنت)، كثيرةٌ في القرآن، تزيد على خمس وثلاثين آيةً، فيها ذكر التهليل؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣]، ومثلها الآية التي كتبها

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى هرقل: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤][1].

فهذا كله في توحيد العبادة.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾، حديث رقم (٤٥٥٣)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، حديث رقم (١٧٧٣)؛ من حديث ابن عباس عن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

قال الشِّنْقِيْطِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[النوع الثالث: هو توحيدُهُ جَلَّ وَعَلَا في أسمائه وصفاته؛ وهذا النوع من التوحيد يَنْبَنِي على أصلَيْنِ، كما بيَّنه جَلَّ وَعَلَا:

الأول: هو تنزيهه تعالى عن مشابهة صفات الحوادث.

الثاني: هو الإيمانُ بكلِّ ما وصَفَ به نفسه، أو وصفه به رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -حقيقةً لا مجازًا- على الوجه اللائق بكماله وجلاله.

ومعلومٌ أنه لا يَصِفُ اللهَ أعلمُ بالله من الله، ولا يَصِفُ اللهَ أعلمُ بالله من رسول الله، واللهُ يقولُ عن نفسه: ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠]، ويقولُ عن رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣- ٤].

فقد بيَّن تعالى نَفْيَ المماثَلةِ عنه بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وبيَّن إثباتَ الصفاتِ له على الحقيقة بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فأولُ الآية يَقْضِي بعدم التعطيل[1]؛ فيتَّضح من الآيةِ: أنَّ الواجبَ إثباتُ الصفاتِ حقيقةً من غير تمثيل، ونَفْيُ المماثَلةِ من غير تعطيل.

وبيَّن عَجْزَ الخلق عن الإحاطة به جَلَّ وَعَلَا؛ قال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]].

الشَّرح

هذا النوع الثالث من أنواع التوحيد، وهو: توحيد الأسماء والصفات، وهو داخلٌ في توحيد المعرفة والإثبات، وتعريفُهُ كتعريفِه،

(١) كذا في المطبوع، ولعل الصواب: (بعدم التمثيل)؛ فإن المقصود: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، وقد شرحها الشيخ بعد ذلك بما يوافق هذا.

أي: أنه: التوحيد العلمي، الخبري، الاعتقادي؛ وذلك لأنه علم نتعلَّمُهُ، وخبَرٌ من الله ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأمرٌ يعتقِدُهُ المسلمون وتُعقَدُ عليه قلوبهم، وتوحيدُ الأسماء والصفات هو الذي كتب فيه العلماء في صدر هذه الأمة، وسبب ذلك: وجود من أنكر الأسماء والصفات لله تعالى(١).

وقد ابتُليَ المسلمون في صدر هذه الأمة بأولئك المعطِّلة والمحرِّفة الذين تمكَّنوا في القرن الثالث، وصارت لهم السيطرة في القرون التي بعدهم، فسوَّل لهم الشيطان، وأملى لهم، وأدخلهم في الأمور الغيبية، وأمرهم أن يفكِّروا في ذات الله؛ فدلَّهم تفكيرُهم على هذا الخطأ الواضح الذي أنكروا به إثبات الصفات، وتوهَّموا أن إثبات الصفات يَلْزَمُ منه التمثيل، أي: أن الله مماثِلٌ لخلقه - كما يقولون -.

ولكنْ نقولُ: ربُّنا سبحانه أعلم بنفسه، ونبينا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعلم بربه، فنقتصر على ما جاء في الكتاب والسنة، وعبارة السلف الذين يقولون: (لا يوصف الله إلا بما وصَفَ به نفسَهُ في كتابه، أو وصَفَهُ به نبيُّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تأويل، ومن غير تشبيه ولا تمثيل، ننفي ذلك عن الله سبحانه).

وإذا أثبتنا الصفاتِ، فإننا نَنفِي عنها مشابهة المخلوقات؛ حتى لا يرمونا بأننا مشبِّهة، قرَّر ذلك سلفُ الأمة، وقد ابتُلُوا بمن أنكر ذلك؛ أنكروا أن يكون القرآن كلام الله، وقالوا: إنَّ الكلام لا يصدُرُ إلا من اللَّهَوات، والحَنْجَرة، واللسان، والشَّفَتَيْن، والأسنان! وقالوا: إنَّ الله منزَّهٌ عن ذلك.

---

(١) سيذكُرُ الشيخ رَحِمَهُ اللهُ بعد قليل بعض هذه الكتب.

فنقول: أأنتم أعلم أم الله؟! أتتدخَّلون في شيء لا تعلمونه؟! الله تعالى أخبر بأنه متكلِّم، وبأنه يتكلَّم كيف يشاء؛ فَنُثْبِتُ الكلام له تعالى.

كذلك أَثْبَتَ الله لنفسه السمعَ والبصرَ، فنقول: إنَّا نُثْبِتُ ما أثبته الله، وسَمْعُ اللهِ لا يَخفى عليه شيء؛ يسمعُ جَهْرَ القول وخَفِيَّ الخطاب، يسمع الجَهْرَ وما يَخفى، وكذلك لا تشتبِهُ عليه اللغات، لغاتُ العالَمِ كلُّها يعلمها ويسمعها، مع كثرة اللغات، ومع اختلاف الأصوات، ومع تفنُّن المسؤولات؛ نُثبِتُ ذلك كله.

وفي هذا التوحيد العِلْمي -وهو توحيد الأسماء والصفات- أَلَّف علماء الأمة، وسَمَّوْا كُتُبَهم بما يدُلُّ عليه:

فلابن خُزَيمةَ كتاب اسمه: (كتاب التوحيد)، يريد: توحيد الصفات؛ طُبِعَ عِدَّةَ طبعات، أثبَتَ رَحِمَهُ اللَّهُ فيه الصفات بالأدلَّة، فطعن فيه المحرِّفون، وقرأتُ لبعض المعاصرين في بعض نشراته تحذيرًا منه، قال فيها: (إنَّ الأَوْلى أن يُسمَّى: كتاب الشِّرْك، أو: كتاب التشكيك)[1]!

آيات يذكرها وأحاديث، ذكَرَ في مقدِّمته أنه يرويها بأسانيد صحيحة من غير طعنٍ في الرواة، ولا انقطاعٍ في الأسانيد؛ وهو الذي يُعرف بإمام الأئمَّة.

ومثله: محمَّد بن إسحاق بن مَنْدَهْ، له كتاب اسمه: (كتاب التوحيد)، ذكَرَ فيه الأسماء والصفات؛ فالتوحيد عندهم هو توحيد الأسماء والصفات:

(١) ذكر حسن السقَّاف في كتاب المعين، بنقد الأربعين (ص ١٨)، هذه العبارة عن الرازي. وينظر: تفسير الرازي (٢٧/ ٥٨٢).

تـارَةً: يُسَمُّونَ كتبهـم في العقائـد باسـم «العقيـدة»؛ كـ(عقيـدة الطحـاوي)، و(الاعتقـاد) للبيهقـي.

وتـارَةً: يسـمُّونها بـ(السـنة)؛ ككتـاب (السُّـنَّة) لابـن أبـي عاصـم، وكتـاب (السُّـنَّة) لعبـد الله ابـن الإمـام أحمـد، وكتـاب (السُّـنَّة) للخـلَّال، و(السُّـنَّة) للإمـام أحمـد، وهـي رسـالة في العقيـدة، ولـه أيضًـا رسـالة أخـرى اسـمها: (أصول السُّـنَّة).

وكلُّها موجودة ومطبوعة، والحمد لله.

ومن الذين توسَّعوا في ذلك: الإمام اللالَكَائي، وكتابه أيضًا مطبوع محقق: (شـرح أصـول اعتقـاد أهل السـنة) في عـدة مجلـدات، وكذلك الإمـام الآجُرِّيُّ لـه كتاب (الشـريعة)، كتاب واسـع، فصَّل فيـه ما يتعلق بالسُّـنَّةِ والعقيدة.

وكذلـك (الإبانـةُ الكـبرى)، و(الإبانـةُ الصغـرى)؛ كلاهمـا لابـن بَطَّـةَ، وهـو عالـمٌ جليـل مشـهور.

وقـد رأيـتُ كاتبًا لأحـد الإباضيين[1] -الذيـن ينكـرون الصفـات- يطعُـنُ في ابـن بَطَّـةَ، ويقـول: (إنـه مشـبِّهٌ، ولا تُقبَـلُ كتبـه)! مـع أنَّ كتبـه ليس فيهـا مـن قولـه شـيء؛ إنمـا رواهـا بالأسـانيد الثابتـة، فـلا لـوم عليـه؛ لأنـه مـا جـاء بشـيء مـن نفسـه، وكذلـك غيره مـن الذيـن كتبـوا في ذلـك.

فهـؤلاء أوَّل مـن أنكَـرَ عِلْـمَ الله، وقـد رَدَّ عليهـم العلمـاء ردًّا واضحًـا

(١) الإباضيـة: هـم أتبـاع عبد الله بـن إبـاض الـذي خـرج في أيـام مروان بـن محمـد، وفيمـا بينهـم فـرق، وكلهـم يقولـون: إن مخالفيهـم مـن فـرق هـذه الأمـة كفَّـار؛ لا مشـركون، ولا مؤمنـون، ويجـوِّزون شـهادتهم، ويحرِّمـون دماءهـم في السـر، ويسـتبيحونها في العلانيـة، ويجـوِّزون مناكحتهـم، ويثبتـون التوارث بينهـم، ويحرِّمون بعض غنائمهـم، ويحلِّلـون بعضهـا؛ فيحلِّلـون مـا كان مـن جملـة الأسـلاب والسـلاح، ويحرِّمون مـا كان من ذهـب أو فضـة. ينظر: الفـرق بيـن الفـرق (ص٨٢)، والملـل والنحـل (١/ ١٣٤).

ظاهرًا؛ قال فيهم الإمام الشافعي: (ناظروهم بالعلم؛ فإنْ أقرُّوا به خُصِمُوا، وإن جَحَدُوهُ كَفَروا)[١]، أي: سَلُوهم: أَتُقِرُّونَ أنَّ الله يعلم؟ أتقرون أن الله بكل شيء عليم؟ فإذا قالوا: لا نُقِرُّ، قلنا: كفرتم؛ لأنكم كذَّبتم بما ذكَرَ الله في كتابه؛ فآيات العلم في القرآن كثيرة، وإذا أقَرُّوا به خُصِمُوا؛ فقلنا لهم: ما الفرق بين العلم بالماضي والعلم بالمستقبل؟

ولمَّا كان أول القرن الثاني، ظهر التعطيل -إنكار الصفات كلها- فالمعطِّلة أنكروا جميع الصفات، وقالوا: (إنَّ إثباتها تمثيل)! فأنكروا أن الله يسمع، أو يُبْصِر، أو يتكلَّم، وأنكروا صفة الحياة، والقدرة، والإرادة، وما أشبه ذلك؛ فحذَّر منهم السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ، وسَمَّوْهُمْ: الجهمية، وقد تمكَّن هؤلاء في آخر القرن الثاني، وظهرت لهم شوكة، وألَّف العلماء ردودًا عليهم، ومن جملة مَن رَدَّ عليهم: أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمي، وله كتابان مطبوعان، أحدهما: في الرد على المَرِيسيِّ، والثاني: في الرد على الجهمية؛ وهما من أفضل الكتب[٢].

ثم تمكَّن المعتزلة في أول القرن الثالث، واتَّصَلُوا بالخليفة المأمون، وزيَّنوا له أن القرآن مخلوق، وأن الله لا يتكلَّم! وقالوا: (ادْعُ الناس إلى ذلك)؛ فحصَلَتِ المحنة، وامتُحِنَ كثير من العلماء، منهم: الإمام أحمد، الذي جُلِدَ حتى كاد جِلْدُهُ يتمزَّق من السياط، وبعد ما رأى العلماء هذا، قالوا: لابد أن نرُدَّ عليهم بنصوص الأدلة التي لا يقدرون على ردها.

قرأتُ لبعض المتأخِّرينَ أنه ينهى عن ذكر الأدلَّة في موضع واحد، تحت عنوان

(١) ينظر: مجموع الفتاوى (٢٣/ ٣٤٩).

(٢) قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في اجتماع الجيوش الإسلامية (٢/ ٢٣١): (كتاباه من أجلِّ الكتب المصنَّفة في السنة وأنفعها، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ يوصي بهذينِ الكتابَيْنِ أشدَّ الوصيَّة، ويعظمهما جدًّا، وفيهما من تقرير التوحيد والأسماء والصفات بالعقل والنقل ما ليس في غيرهما).اهـ.

واحد، ويقول: (اتركوها في مواضعها من القرآن؛ حتى يسهُلَ تحريفها وتأويلها؛ لأنكم إذا جمعتموها، صَعُبَ عليكم أن تؤوِّلوها، أو صار تأويلها فيه تكلُّفٌ).

وأشد ما ينكره هؤلاء: (صفةُ العُلُوِّ) لله تعالى، أي: كونُهُ تعالى موصوفًا بأنه العليُّ الأعلى، وأنه على العرش استوى، أنكروا ذلك وبالغوا في إنكاره، ولا يزالون إلى هذا الوقت.

قال الشِّنْقِيْطِيُّ: (وهذا النوع من التوحيد يَنْبَنِي علىٰ أصلَيْنِ، كما بيَّنه جَلَّوَعَلَا:

الأول: هو تنزيهه تعالىٰ عن مشابهة صفات الحوادث.

الثاني: هو الإيمان بكلِّ ما وصَفَ به نفسه، أو وصفه به رسوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ حقيقةً لا مجازًا).

فبهذين الأصلين نثبت الأسماءَ والصفاتِ التي وردت في الأدلة، ونَنْفي عنها مشابهة المخلوقات، فإذا كان كذلك، فلا طَعْن، ولا إنكار، وهذا هو الصحيح، وقد دلَّ على الأول آيات، ودلَّ على الثاني أيضًا آيات كثيرة.

يقول: نُثبِتُها (حقيقةً لا مجازًا)؛ وذلك لأن هؤلاء المعطِّلة جعلوها مجازًا؛ فقالوا: الاستواء مجاز عن الاستيلاء! وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، يقولون: هذا مجازٌ عن النعمة! وأشباه ذلك؛ لكنَّنا نُثْبِتُ ذلك على الوجه اللائق بكماله وجلاله.

ومعلوم أن الله تعالى هو أعلم بنفسه، فلا يصفُهُ أحدٌ أعلم به منه، وكذلك نبيه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أعلم بمَنْ أرسله؛ ولذلك يُستدَلُّ بقول الله تعالى: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠]، أي: أتنكرون صفات الله، وتصفون الله بشيء لم يصف به نفسه، ولم يصفه به نبيه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؟! الذي يقول عنه سبحانه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤]، أي: ما يقرؤه وما ينطق به هو كلام الله تعالى.

وقد بيَّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَفْيَ المماثلة، يعني: نفيَ أن يكون لله شبيه، أما المعطِّلة فإنهم يرموننا بالتشبيه، ويقولون: إنكم مشبِّهة، ولا ينفعكم قولكم: (بلا كَيْف)! ومن هؤلاء المعتزلة: الزمخشري، صاحب الكتاب المشهور البليغ الذي يسمَّى: (الكشَّاف)؛ فقد أنكر صفات الله تعالى، وأنكر على المثبتين الذين يقولون: (نُثبتها بلا كيف)، نقل في وصفهم:

قَدْ شَبَّهُوهُ بِخَلْقِهِ وَتَخَوَّفُوا شِنَعَ الْوَرَىٰ فَتَسَتَّرُوا بِالْبَلْكَفَةْ[1]

أي: بقولهم: (بلا كيف).

وقد قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]؛ ردًّا على الممثِّلة، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]؛ ردًّا على المعطِّلة، فبعضُ آية فيها ردٌّ على الطائفتين جميعًا، ونحن نقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، صفات الله تعالى تليق به، وصفات المخلوقين تليق بهم؛ فنُثبِتُ السمع والبصر كما يليق بالله تعالى.

فيتَّضِحُ من الآية: أن أوَّلها يقضي بعدم التمثيل، وآخرها يقضي بعدَمِ التعطيل؛ فأول الآية: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾: نفيٌ للتشبيه والتمثيل، وآخرها: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، يقضي بعدم تعطيل صفات الله.

ويتَّضح من الآية: أن الواجب: إثبات الصفات حقيقةً من غير تمثيل، واعتقادُ دلالتها ومعانيها، ونفيُ المماثلة من غير تعطيل، وقد بيَّن عجزَ الخلق عن الإحاطة به جَلَّ وَعَلَا بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، أي: مهما فكَّروا وقدَّروا، فإنهم لا يحيطون بالله تعالى عِلْمًا؛ بل هم عاجزون عن ذلك.

---

(١) ذكره في الكشاف (٢/ ١٥٦)، وعزاه لبعض العَدْلية.

المسألة الثانية

الوعظ



قال الشِّنْقِيْطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

[المسألة الثانية: التي هي الوعظ:

فقد أجمع العلماء على أن الله تعالى لم يُنزِلْ من السماء إلى الأرض واعظًا أكبَرَ ولا زاجرًا أعظَمَ مِن موعظةِ المراقَبةِ والعلم، وهي أن يُلاحِظَ الإنسانُ أن ربَّه جَلَّ وَعَلَا رقيبٌ عليه، عالِمٌ بكل ما يُخْفِي وما يُعْلِن.

وضرَبَ العلماءُ لهذا الواعظِ الأكبرِ والزاجرِ الأعظمِ مَثَلًا يصيرُ به المعقولُ كالمحسوس؛ قالوا: (لو فَرَضْنا مَلِكًا سفَّاكًا للدماء، قتَّالًا للرجال، شديدَ البطشِ والنَّكَال، وسيَّافُهُ قائمٌ على رأسه، والنِّطْعُ مبسوطٌ، والسيفُ يقطُرُ دمًا، وحول ذلك المَلِكِ بناتُهُ وأزواجُهُ؛ أيخطُرُ في البال أن يَهُمَّ أحدٌ من الحاضرين بريبة، أو نَيْلِ حرام من بنات ذلك المَلِكِ وأزواجه، وهو عالمٌ به، ناظرٌ إليه؟!) لا، وكلَّا -ولله المثَلُ الأعلى- بل كلُّ الحاضرين يكونون خائفين، خاضعةً قلوبهم، خاشعةً عيونهم، ساكنةً جوارحهم، غايةُ أمانيهم: السلامة.

ولا شكَّ -ولله المثَلُ الأعلى-: أن الله جَلَّ وَعَلَا أعظمُ اطِّلاعًا، وأوسعُ علمًا من ذلك المَلِك، ولا شكَّ أنه أعظمُ نكالًا، وأشدُّ بطشًا، وأفظعُ عذابًا، وحِمَاهُ في أرضه: مَحَارِمُه.

ولو عَلِمَ أهلُ بلد أن أمير البلد يُصبِحُ عالمًا بكل ما فعلوه بالليل، لباتوا خائفين، وتركوا جميع المناكر خوفًا منه.

وقد بيَّن تعالى أن الحكمة التي خلَقَ الخلقَ من أجلها هي: أن يَبْتَلِيَهم، أي: يختبِرَهم أيُّهم أحسنُ عملًا؛ قال في أول سورة هود: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، ولم يقل: (أيُّكم أكثر عملًا؟!)، وقال في المُلْكِ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢].

وهاتان الآيتان تبيِّنانِ المرادَ من قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ولمَّا كانت الحكمةُ في خلق الخلائق الاختبارَ المذكورَ، أراد جبريلُ أن يبيِّنَ للناس طريقَ النجاح في ذلك الاختبار؛ فقال للنبي ﷺ: «**أخبِرْني عن الإحسان**»، أي: وهو الذي خُلِقَ الخَلْقُ لأجل الاختبار فيه، فبيَّن ﷺ أن طريق الإحسان هي: هذا الزاجرُ الأكبرُ، والواعظُ الأعظم المذكورُ؛ فقال: هُوَ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»(١).

ولهذا لا تَقْلِبُ ورَقةً من المصحف الكريم إلا وَجَدتَّ فيها هذا الواعظَ الأعظمَ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧]، ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١]، ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [هود: ٥]. ونحوَ هذا في كل مَوضِعٍ من القرآن].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، حديث رقم (٥٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان والاسلام والقدر وعلامة الساعة، حديث رقم (٩)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ وأخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب الايمان ما هو وبيان خصاله، حديث رقم (٨)؛ من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

الشَّـرح

هـذا الواعـظُ هـو عَيْـنُ المراقَبـة، أو عينُ الملاحَظـة، وهـو استحضار أن الإنسـان مخلـوق لربِّـه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وأن ربَّـه الـذي خلقـه يَملِـكُ التصرُّفَ فيـه كيـف يشـاء، فلـه الخلـق والأمـر، واسـتحضارُ أن العبـد بمـرأًى ومسـمعٍ مـن ربـه لا تخفـى عليـه خافيـة مـن أمـره، فيطيـع ربَّـه في كل دقيـق وجليـل:

أولًا: يستحضر عظمة الربِّ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وأنه الكبير المتعال.

وثانيًـا: يسـتحضر أنـه بمـرأًى ومسـمعٍ مـن ربـه: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٨-٢٢٠].

وثالثًـا: يسـتحضر قـدرة الله، وأنـه علـى كل شـيء قديـر، وأنـه يفعـل مـا يشـاء، ويحكُـمُ مـا يريـد، لا رادَّ لقضائـه، ولا معقِّـبَ لحُكْمـه، يقـدر علـى العـذاب، ويقـدر علـى البطـش، ويأخُـذُ بقـوَّة، ويسـتحضر قـول الله تعالـى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هـود: ١٠٢].

إذا استحضر ذلـك فإنـه لا يتجرَّأ علـى المعصيـة والمخالفـات، ويمتثـل للفرائـض والمأمـورات، ويكـون سـامعًا مطيعًـا لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى؛ بحيـث إنـه يقـول دائمًـا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ويراجِـعُ نفسـه: كيـف أعصـي ربـي وهـو يـراني، وهـو: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، ﴿يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ [الأعلى: ٧]؟! كيـف أعصـي ربـي وقـد أمـرني بفعـل الطاعـات، ونهـاني عـن المحرَّمـات؟! كيـف أعصـي ربـي وهـو يَقْـدِرُ علـى أن يعـذِّب: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]؟! كيـف أعصـي ربـي وقـد وعَـدَ مـن أطاعـه بالثـواب، وتوعَّـد مـن عصـاه بالعقـاب؟!

إذا فعل ذلك، رُجِيَ أن تزجُرَهُ نفسُه؛ فلا يُقدِمُ على معصية وهو يعلم أنها محرَّمة، وفي فعلها عذاب، ولا يتركُ طاعة وهو يعلم أن تركها ذنب يعاقب عليه؛ هذا واعظ الله في قلب كلِّ مؤمن.

ولهذا قال المؤلِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (**أجمع العلماء علىٰ أن الله تعالىٰ لم يُنزِلْ من السماء إلىٰ الأرض واعظًا أكبَرَ ولا زاجرًا أعظَمَ مِن موعظةِ المراقَبةِ والعلم**)، أي: مراقبةِ أن الله تعالى يرى العباد، وأنه يعلم أحوالهم وأسرارهم، ويطَّلع على ما في ضمائرهم، وأنه بكل شيء عليم: ﴿يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ [النحل: ١٩]، ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، كيف لا يعلمهم وهم خَلْقُه، لا يخرُجُونَ عن ملكه، ولا يخرجون عن قبضته، وتحت تصرُّفه وتقديره، هذا هو واعظُ الله.

فالذي يستحضر ذلك لا يُقدِمُ على معصية، ومَنْ أقدم على معصية فإن ذلك لضعف يقينه، وبالأخص الذي يفعلها في الخَلْوةِ، ولا يفعلها أمام الناس؛ فإنَّ هذا من ضعف الإيمان؛ أَلَا تؤمِنُ بأن الله يراك؟ أَلَا تؤمِنُ بأنه حرَّم هذا؟! أَلَا تؤمِنُ بأنه يعاقِبُ من عصاه، ويُثيبُ من أطاعه؟!

ذُكِرَ أن رجلًا قال: (خَرَجْتُ فِي بعضِ لَيَالِي الظَّلَام، فإذا أنا بجارِيَةٍ كأنَّها عَلَمٌ، فَأَرَدتُها عن نَفْسِها، فقالت: وَيْلَكَ؛ أَمَا كَانَ لَكَ زَاجِرٌ مِنْ عَقْلٍ إِذْ لَمْ يَكُنْ لَكَ نَاهٍ مِنْ دِينٍ؟! فقلتُ: إِنَّهُ وَاللهِ مَا يَرَانَا إِلَّا الْكَوَاكِبُ، قالت: فَأَيْنَ مُكَوْكِبُهَا)[1].

وكذلك ذُكِرَ أَنَّ رَجُلًا أَرَادَ امْرَأَةً عَنْ نَفْسِهَا، فَقَالَتْ لَهُ: أَنْتَ قَدْ سَمِعْتَ الْحَدِيثَ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ، وَأَنْتَ أَعْلَمُ، فَقَالَ لَهَا: فَأَغْلِقِي أَبْوَابَ

(١) ذكرها الخرائطي في اعتلال القلوب (٨٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٨٥٣).

الْقَصْرِ، فَأَغْلَقَتْهَا، فَدَنَا مِنْهَا، فَقَالَتْ: بَقِيَ بَابٌ لَمْ أُغْلِقْهُ، قَالَ: أَيُّ بَابٍ؟ قَالَتِ: الْبَابُ الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قَالَ: فَلَمْ يَعْرِضْ لَهَا[١].

وكذلك قصَّة الثلاثة الذين انطبَقَتْ عليهم الصخرة في الغار، أحدهم يقول: «**اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِي ابْنَةُ عَمٍّ، مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَأَنِّي رَاوَدتهَا عَنْ نَفْسِهَا، فَأَبَتْ، إِلَّا أَنْ آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَطَلَبْتُهَا حَتَّىٰ قَدَرْتُ، فَأَتَيْتُهَا بِهَا، فَدَفَعْتُهَا إِلَيْهَا، فَأَمْكَنَتْنِي مِنْ نَفْسِهَا، فَلَمَّا قَعدت بَيْنَ رِجْلَيْهَا، فَقَالَتْ: اتَّقِ اللهَ وَلَا تَفُضَّ الخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ...**»[٢]؛ فخاف وتركها.

فالذي يستحضر عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنه: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]؛ فيقولُ: الله يعلم بي، وما أنا فيه، ويستحضِرُ قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١]، فيراجع نفسه، ويقول: الله قادر على أن ينتقم منا، ويبطش بنا، ويعذِّبنا، ويستحضِرُ عقوبات الله في الأمم السابقة، كيف أغرَقَ قوم نوح! وكيف أهلك عادًا بريح صرصر عاتية! وكيف أهلك ثمود بصيحة واحدة، أهلكَتْهم وتقطَّعت قلوبهم في أجوافهم! وكيف أغرَقَ آل فرعون، وقومُ موسى ينظرون! وأشباه ذلك.

فهكذا تكون حالة مَن يستحضِرُ عظمة الله، لا شك أن هذا هو واعظ الله في قلبِ كلِّ مؤمن.

جاء في حديث النوَّاس بن سِمْعانَ المشهورِ، في المسند وغيره، قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَىٰ جَنبَتَي الصِّرَاطِ**

---

(١) ذكرها الخرائطي في اعتلال القلوب (٨٥).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، حديث رقم (٣٤٦٥)، ومسلم، كتاب الرقاق، باب قصة أصحاب الغار، حديث رقم (٢٧٤٣)؛ من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

سُـورَانِ، فِيهِمَـا أَبْـوَابٌ مُفَتَّحَـةٌ، وَعَلَـىٰ الأَبْـوَابِ سُـتُورٌ مُرْخَـاةٌ، وَعَلَـىٰ بَـابِ الصِّـرَاطِ دَاعٍ يَقُـولُ: يـا أَيُّهَـا النَّـاسُ، ادْخُلُـوا الصِّـرَاطَ جَمِيعًـا، وَلَا تَتَفَرَّجُـوا، وَدَاعٍ يَدْعُـو مِـنْ جَـوْفِ الصِّـرَاطِ، فَـإِذَا أَرَادَ يَفْتَـحُ شَـيْئًا مِـنْ تِلْـكَ الأَبْـوَابِ، قَـالَ: وَيْحَـكَ لَا تَفْتَحْـهُ؛ فَإِنَّـكَ إِنْ تَفْتَحْـهُ تَلِجْـهُ، وَالصِّـرَاطُ: الْإِسْـلَامُ، وَالسُّـورَانِ: حُـدُودُ اللهِ تَعَالَـىٰ، وَالأَبْـوَابُ الْمُفَتَّحَـةُ: مَحَـارِمُ اللهِ تَعَالَـىٰ، وَذَلِـكَ الدَّاعِـي عَلَـىٰ رَأْسِ الصِّـرَاطِ: كِتَـابُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَالدَّاعِـي مِـنْ فَـوْقَ الصِّـرَاطِ: وَاعِـظُ اللهِ فِـي قَلْـبِ كُلِّ مُسْـلِمٍ»[1].

فسَّـر النبـي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هـذا الـذي يقـول: «وَيْحَـكَ لَا تَفْتَحْـهُ؛ فَإِنَّـكَ إِنْ تَفْتَحْـهُ تَلِجْـهُ»، فقـال: «وَاعِـظُ اللهِ فِـي قَلْـبِ كُلِّ مُسْـلِمٍ»، فهكـذا يكـون وعـظ الله تعالـى للعبـاد.

هـذه موعظـة المراقَبـةِ والعِلْـم، يلاحِـظُ المسـلم أن ربَّـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رقيـب عليـه، عالـم بـه، عالـم بـكل مـا يُخفِـي ويُعلِـن، يقـولُ: إذا أخفيـتُ المعصيـة، خَفِيَـتْ علـى النـاس، ولكـن لا تخفـى علـى الله؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمـران: ٥].

قـال المؤلِّـف رَحِمَهُ اللَّهُ: (وضـرَبَ العلمـاءُ لهـذا الواعـظ الأكبـر والزاجـرِ الأعظـم مَثـلًا يصيـر بـه المعقـولُ كالمحسـوس؛ قالـوا: لـو فرَضْنـا مَلِـكًا سـفَّاكًا للدمـاء، قتَّـالًا للرجـال، شـديدَ البطـشِ والنـكال، وسـيَّافُهُ قائـم علـىٰ رأسـه، والنِّطْـعُ[2] مبسـوطٌ، والسـيفُ يقطُـرُ دمًـا، وحـول ذلـك المَلِـكِ بناتُـهُ

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٧٦٣٤) واللفظ لـه، والترمـذي، كتـاب الأدب، بـاب مـا جـاء في مَثَلِ الله لعبـاده، حديـث رقـم (٢٨٥٩)، والنسـائي في السـنن الكـبرى، كتـاب التفسـير، سـورة يونـس، حديـث رقـم (١١١٦٩)، والحاكـم في المسـتدرك، كتـاب الإيمـان، (١/ ١٤٤)؛ مـن حديـث النوَّاس بـن سِـمْعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قـال الترمـذي: «حسـن غريـب».

(٢) النِّطْـعُ: الجلـد الـذي يوضـع تحـت الشـخصِ المـرادِ قتلُـهُ؛ كـي يكـون دمـه علـى ذلـك الجلـد. ينظـر: لسـان العـرب (ن ط ع).

وأزواجُهُ؛ أيخطُرُ في البال أن يَهُمَّ أحدٌ من الحاضرين بريبة، أو نَيْلِ حرام مِن بنات ذلك المَلِكِ وأزواجه، وهو عالمٌ به، ناظرٌ إليه؟).

هل يتجرَّأُ أحد فيقوم إلى إحدى بناته -وهو ينظر- ويفترِشُها ويفجُرُ بها، أو إحدى زوجاته، أو إحدى محارمه؟! الذي في قلبه خوف، والذي عنده مراقَبةٌ، أو يخافُ من البطش والأذى والعذاب، لا شك أنه ينزجر، لا يتجرَّأ على إحدى محارم ذلك المَلِك، يقول: لو لَمَسْتُ واحدةً بإصبعي، لأمَرَ السيَّافَ فقطع رأسي في لحظة؛ لأنه غالبًا يكون غيورًا.

وقد ضرب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثلًا، فقال: «**مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ**»[1]، أي: كل بني آدم رجالُهم عبيد الله، ونساؤهم إماء الله؛ فلو كان الإنسان عنده عَبيدٌ هل يَجْرُؤُ أن يزني عبده، وهو يعلم أن سيِّدَهُ غيور؟! وهل تجرُؤُ أن تزني مملوكته، وهي تعلم أنه قادر على أن يَبْطِش بها ويعذِّبها؟! فكُلُّكم عبيد الله، وكل نسائكم إماء الله.

قال المؤلِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: **(لا، وكلا -ولله المثَلُ الأعلىٰ-؛ بل كلُّ الحاضرين يكونون خائفين، خاضعةً قلوبهم، خاشعةً عيونهم، ساكنةً جوارحهم، غايةُ أمانيهم السلامة).**

هذا مع أنه مخلوق، يخفى عليه ما غاب وراء بيته، لو خرَجَتْ إحدى بناته أو إحدى نسائه خارج بيته، لغابت عنه، ولم يعلم بحالها، وبما تفعله؛ لأنه بشر، والبشر لا يعلم إلا ما وصَلَ إليه علمه، وما شاهده، وما سمعه.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب صلاة الكسوف، باب الصدقة في الكسوف، حديث رقم (١٠٤٤)، ومسلم، كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف، حديث رقم (٩٠١)؛ من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (**ولا شكَّ -ولله المثَلُ الأعلىٰ- أنَّ الله** جَلَّ وَعَلَا **أعظمُ اطِّلاعًا، وأوسعُ علمًا من ذلك المَلِك**).

الربُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سميع بصير، وَسِعَ سمعُهُ الأصواتَ، يسمع جهرَ القول، وخَفِيَّ الخطاب، في اللحظة الواحدة يسمع جميع الأصوات التي يتكلَّم بها البشر، ولا تشتبه عليه اللغات، ولا تُغلِطهُ كثرة المسائل، مع اختلافِ اللغات، وتفَنُّن المسؤولات، وعالمٌ بكل شيء حتى ما في الضمائر؛ فالله جَلَّ وَعَلَا أعظم اطِّلاعًا، وأوسعُ علمًا، وأقوى قدرةً من ذلك المَلِك.

ولا شك أيضًا: أن الله تعالى (**أعظمُ نكالًا**)، يعني: عقوبةً، (**وأشدُّ بطشًا**)؛ ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]، (**وأفظعُ عذابًا**) من ذلك المَلِك، (**وحِمَاهُ في أرضه: محارمه**)؛ كما في الحديث أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًىٰ، أَلَا إِنَّ حِمَىٰ اللهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ**»(١).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (**ولو عَلِمَ أهل بلد أن أمير البلد يُصبِحُ عالمًا بكلِّ ما فعلوه بالليل، لبَاتُوا خائفين، وتركوا جميع المناكر خوفًا منه**).

لو قالوا: يُمكِنُ أن يرسل الأمير إلينا من يراقبنا خُفْيةً، ويطَّلِعُ علينا مِن نوافذَ، أو مِن خَصَاصِ الباب(٢)، أو نحوه؛ فإنَّ ذلك يزجُرُهم عن أن يعصوا الأمير؛ فيكون هذا زاجرًا لكل ذي عقل عن المعاصي.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، حديث رقم (٥٢)، ومسلم، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، حديث رقم (١٥٩٩)؛ من حديث النعمان بن بَشِير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) قال في المُطْلِع، على ألفاظ المُقْنِع (ص٤٦١): (خَصَاصُ الباب: الفُرَجُ التي فيه، واحدتها: خَصَاصة). وفي تهذيب اللغة (٦/ ٢٩٢): (كلُّ خَلَلٍ أو خَرْقٍ يكون في مُنْخُلٍ أو باب أو سحاب أو برقع، فهو خَصَاص).

وقد بيَّن تعالى أن الحكمة التي خلَقَ الخلقَ من أجلها: هي أن يبتليَهم ويختبرَهم؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، يعني: ما على وجه الأرض زينةٌ للأرض(١)؛ ولكنْ في ذلك ابتلاء وامتحان واختبار للناس؛ أيُّهم أحسَنُ عملًا، وقال تعالى: في أول سورة هود: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، ولم يقل: (أيُّكم أكثر عملًا)؛ وذلك لأنه عالم بالضمائر؛ فـ(أحسَنُ عملًا) يعني: أخلصه وأصوبه، رُوِيَ عن الفُضَيْلِ بنِ عياضٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾: أخلصُهُ وأصوبه؛ فقيل: ما معنى أخلصه وأصوبه يا أبا عليٍّ؟ قال: (إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا، لم يُقْبَلْ، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا، لم يُقْبَلْ، والخالص: ما كان لله، والصواب: ما كان على السُّنَّة)(٢).

الخالصُ: هو العمل الذي يرادُ به وجهُ الله، والصوابُ: ما كان موافِقًا لسُنَّةِ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فلم يقل: (أيُّكم أكثر عملًا)؛ لأن العبرة بالإخلاص.

وقال تعالى في سورة الملك: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]؛ فالله تعالى خلق العباد لِيَبْتَلِيهم بالأوامرِ والنواهي، وهو سبحانه غَنِيٌّ عنهم؛ جاء في الحديث القدسيِّ، عن أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أن الله تعالى قال: «**يا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَتْقَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي**

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٥/ ١٥١).
(٢) ينظر: حلية الأولياء (٨/ ٩٥)، وتفسير البغوي (٨/ ١٧٦).

شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا»(١).

فالله سبحانه غَنِيٌّ عن العباد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، ﴿فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦]، ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: ٣٨]، ولكنه خلَقَ العباد، وأنعَمَ عليهم، وأعطاهم من كلِّ ما سألوه، وفرض عليهم هذه العبادات ليتقرَّبوا بها، وحرَّم عليهم هذه المحرَّمات ابتلاءً وامتحانًا، وإلا فإنه غنيٌّ عنهم وعن عباداتهم؛ فالحكمة من خلقهم: أن يَبْتَلِيَهم بالأوامر والنواهي.

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وهاتان الآيتان تبيِّنانِ المرادَ من قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦])**.

فالمراد بـ: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾: ليوحِّدوني وليطيعوني(٢)؛ آمُرُهم، وأنهاهم، وأحكُمُ فيهم، وأُثِيبُ من يُطيع، وأعاقِبُ من يعصي.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ولمَّا كانت الحكمة في خلق الخلائق الاختبارَ المذكورَ)**، أي: امتحانَهُمْ أيُّهم أحسَنُ عملًا، **(أراد جبريل أن يبيِّنَ للناس طريقَ النجاح في ذلك الاختبار)**، يعني: أن هذا اختبار، والاختبار فيه نجاحٌ أو رسوب، كما هو معروف؛ فلذلك قال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أَخْبِرْني عن الإحسانِ؟»** -وهو المرتبة العُلْيا- بعد ما قال: **«أَخْبِرْني عن الإسلامِ؟»**، ثم قال: **«أَخْبِرْني عن الإيمانِ؟»**، قال بعد ذلك: **«أَخْبِرْني عن الإحسانِ؟»**، **(وهو الذي خُلِقَ الخلقُ لأجل الاختبار فيه)**؛ يُختبَرونَ في الإحسان، أي:

(١) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب تحريم الظلم، حديث رقم (٢٥٧٧).
(٢) ينظر: تفسير القرطبي (١٧/ ٥٦).

العقيدة، والمراقبة؛ (فبيَّن ﷺ أن طريق الإحسان: هي هذا الزاجرُ الأكبرُ، والواعظُ الأعظمُ المذكور؛ فقال هو: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ؛ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»).

قال العلماء: إن الإحسان نوعان: عينُ المشاهدة، وعينُ المراقبة، فعين المشاهدة: كأنَّك تراه، وعين المراقبة: أنَّه يراك.

ولا شكَّ أن الذي يعبُدُ اللهَ كأنَّه يراه، وكأنه يشاهِدُ عظمته، وجلاله، وكبرياءه، وقدرته، وبطشه، وثوابه، وعقابه، وغضبه، ورضاه؛ كيف تكون حالته؟! لا شك أنه يعبُدُ الله أتمَّ العبادة، ويُطِيعُهُ أتم الطاعة، ولا يتجرَّأ على معصيته.

فإذا لم يَصِلْ إلى هذه الرتبة، فليتَّصِلْ بالرتبة الثانية، وهي: أن يستحضر أنه بمرأى ومسمعٍ من ربه، وأنه لا يخفى على ربه منه خافية، فيقول: (ربي يشاهدني، ويعلم جميع حالاتي، كيف أتجرَّأ على مخالفته ومعصيته؟!).

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولهذا لا تَقْلِبُ ورَقةً من المصحف الكريم إلا وَجَدتَّ فيها هذا الواعظَ الأعظمَ)، يعني: المراقبة، فكلَّما تجد مثلًا: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦]، فقُل: السميع يسمعُنا، العليم يعلمُ أحوالَنا، و﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧]؛ البصيرُ يرانا ويُبصِرُ جميعَ ما نحن فيه، الخبيرُ خبيرٌ بعباده، ومع كونه بكلِّ شيء عليمًا، فقد وكَّل بالعباد من يكتُبُ أعمالَهم ويُحصِيها: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

كذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، أي: العِرْقِ الذي في أصل الرقبة في أحد جانبَيْها، يَعلَمُ ما تُوَسْوِسُ به نفسُهُ؛ فأخبَرَ تعالى بأنه قريبٌ من عباده، ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧]، يعني: يتلقَّى الملَكان ما يتكلَّم به وما يفعلُهُ؛ عن اليمين: ملَكُ الحسنات، وعن الشمالِ: ملَكُ السيئات، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

كذلك قول الله تعالى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧]، أي: لا تحسبوا أننا غائبون عنكم؛ بل نحن نَعْلَمُكم.

وكذلك قوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١]:

فأوَّلُ الآية خطابٌ لكُلِّ فرد: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ﴾، أيُّها الإنسان، في أيِّ شأن من شؤونك، ﴿وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾، يعني: ما تقرأ من آية.

ثم انتقل إلى الجميع: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾، صغيرًا كان أو كبيرًا، باليد، أو بالقدم، أو باللسان، أو بالأذن، أو بالعين: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾، الضمير يعود إلى الله تعالى، يعني: أنه على كل شيء شهيد، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢]، ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾، يعني: تعملونه وتدخلون فيه، ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾، ضرَبَ مثلًا بالذَّرَّة؛ لأنها أصغر الحيوانات التي تمشي على الأرض غالبًا، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾، أي: لا أصغر من الذَّرَّة ولا أكبر إلا في كتاب مبين، أي: مكتوب.

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ﴾، يعني: ورقة من شجرة، ﴿إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾، ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾، هكذا يخبر بأنه بكل شيء عليم.

ومثلها قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [هود: ٥]، ومعنى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ﴾، أي: هل يَقْدِرون أن يستخفوا من الله؟! ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾، يعني: يَلتحِفونَ بها في فُرُشهم، ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾، يعلم إسرارهم وإعلاناتهم، ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

ونحو هذا في كل موضع من القرآن، بمعنى: أنه سبحانه عليم بكلِّ شيء؛ فالذي يؤمن بذلك لا شك أنه يكون خائفًا من عقاب الله تعالى، أما الذي ينقُصُ إيمانُهُ، وتنقُصُ معرفته بربِّه، فإنه لا يبالِي بذلك -والعياذ بالله- ولذلك قال في صفة بعضهم: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨]، أي: أنه معهم بعلمه، ومراقبته، واطِّلاعه عليهم؛ فكيف يستَخْفُونَ من الناس ولا يستخفون منه تعالى؟!

المسألة الثالثة

الفرقُ
بين العمل
الصالح وغيره



قال الشِّنْقِيْطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

[المسألة الثالثة: التي هي الفرق بين العمل الصالح وغيره:

فقد بيَّن القرآنُ العظيمُ: أن العمَلَ الصالحَ هو ما استكمَلَ ثلاثةَ أمورٍ، ومتى اختَلَّ واحد منها فلا نَفْعَ فيه لصاحبه يوم القيامة:

الأول: أن يكون مُطابِقًا لما جاء به النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، ويقول: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾ الآيةَ [آل عمران: ٣١]، ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩].

الثاني: أن يكون خالصًا لوجهه تعالى؛ لأنه يقول: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ الآيةَ [البينة: ٥]، ويقول: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: ١١- ١٥].

الثالث: أن يكون مبنيًّا على أساس العقيدة الصحيحة؛ لأن العمَلَ كالسَّقْف، والعقيدةَ كالأساس؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ فقيَّد ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، وقال في غير المؤمن: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٦]، إلى غير ذلك من الآيات].

الشَّرح

المسألة الثالثة: التي هي الفرق بين العمل الصالح وغيره:

كثير من الناس يعملون، ولكنْ يتفاوتون؛ فمنهم: من يكون عمله صالحًا، ومنهم: من يكون عمله غيرَ ذلك.

والذين لا يكون عملهم عملًا صالحًا:

إما أنهم يعملون على جهل، ويتخبَّطون في الأعمال؛ فتكون أعمالهم مخالفةً لشرع الله ولأمره.

وإما أنهم معاندون يعرفون الحقَّ ويَمِيلونَ عنه، وهذا يكون في المبتدعة؛ فكثير من المبتدعة يعلمون الحقَّ ويتمسَّكون بالبدع التي وجَدُوا عليها آباءهم: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ۝٦٩ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [الصافات، ٦٩-٧٠].

وهناك من يفعل المعاصِيَ من باب التساهل وإعطاء النفس شهواتها وملذَّاتها في الدنيا، ويقولون: (نعمل هذه الأعمال والمعاصي والمحرَّمات؛ نمتِّعُ أنفسَنا بها في هذه الدنيا، ويُمكِننا أن نتوبَ فيما بعدُ، نحن قادرون على التوبة، والأعمارُ طويلة، والأيامُ طويلة)، ويسوِّفُون التوبةَ.

فيقال لهؤلاء:

أولًا: إن الله تعالى حرَّم المعاصي صغيرَها وكبيرَها، والتهاوُنُ في الصغائر يصيِّرُها كبائرَ.

ثانيًا: إن الإنسان لا يدري هل يُمكَّنُ من التوبة أو لا يُمكَّنُ؟ فقد يحال بينه وبين التوبة، والعادة: أن الإنسان إذا أصرَّ واستمرَّ على عمل فإنه يصير له جِبِلَّةً، ويصعُبُ عليه أن يترُكَه، أو يتخلَّى عنه؛

إذ يكون ذلك العمل قد تملَّك عليه نفسه، وهو يعلم أنه محرَّم، ويعلم أنه متاعٌ قليل ثم يزول.

ولذلك يقول بعضُهم[١]:

تَفْنَىٰ اللَّذَاذَةُ مِمَّنْ نَالَ صَفْوَتَهَا ... مِنَ الْحَرَامِ وَيَبْقَىٰ الْإِثْمُ وَالْعَارُ
تَبْقَىٰ عَوَاقِبُ سُوءٍ فِي مَغَبَّتِهَا ... لَا خَيْرَ فِي لَذَّةٍ مِنْ بَعْدِهَا النَّارُ

فلو فكَّروا في هذا كلِّه، لكان زاجرًا لهم عن الأعمال السيئة، وحاملًا لهم على الأعمال الصالحة.

والعمل الصالح قد بيَّنه الله تعالى في القرآن، وذكَرَ المؤلِّف أنه الذي يستكمِلُ ثلاثةَ أمورٍ، ومتى اخْتَلَّ واحدٌ منها فلا نفع فيه لصاحبه يوم القيامة، وكأنها ثلاثةُ شروط:

الشرط الأوَّل: أن يكون مطابقًا لما جاء به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

أي: أن يكون على السُّنَّة؛ وهذا الشرط يُخرِجُ جميع البدع.

قال بعض العلماء: (إن البدعةَ أحبُّ إلى الشيطان من المعصية)[٢]؛ لأن البدعة يُصِرُّ عليها صاحبُها، ويعتقدُها سُنَّةً، ويتمسَّكُ بها، ولا يقبلُ التحوُّلَ عنها -والعياذ بالله- ولو أنها عند التفكُّر وعند التأمُّل بعيدة عن الصواب.

تأمَّل مثلًا: بدعة الرافضة، الذين يَسُبُّونَ الصحابةَ، ويكفِّرونهم، ويكفِّرونَ من ترضَّى عنهم، تُجادل أحدهم فيتمسَّك بما كان عليه آباؤه،

---

(١) حكاه ابن الجوزي في ذم الهوى (١/ ١٨٦)، عن سفيان الثوري، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٧/ ٢٢١)، عن مِسْعَر بن كِدَام.

(٢) ذكره اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢٣٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٠٠٩)، عن الثوري.

وأجداده، وأسرته، وقبيلته، أليس ذلك دليلًا على أنه زُيِّنَ له عملُهُ؟! ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾ [فاطر: ٨].

وتأمَّل أيضًا بدعة القُبُوريِّين، وتأمَّل بدعة المعطِّلة، وتأمل البدع الحديثة؛ فإن أهلها يتمسَّكون بها؛ كالبَعْثية[١]، والنُّصَيْرية[٢]، والدُّرُوز[٣]، والدُّيُوبَنْدية[٤]، والبريلوية[٥]، وأشباههم من المبتدِعة، يُصِرُّونَ على بدعهم، إلا من هَدَى الله.

---

(١) البعثية: نسبة إلى حزب البعث، وهو حزب قومي سلطوي يحاد الله ورسوله، ويسعى إلى قلب الأوضاع في العالم العربي، ويتخذ العلمانية وتحقيق الاشتراكية مطلبًا يبرر سياسته القمعية، ورسالته التي يصفها على خلاف الحقيقة بالتقدمية، ويجعل من الوحدة العربية هدفًا ينفذه بالضم والإرغام رغم إرادة الشعوب. ينظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب (١/ ٤٨٣).

(٢) النصيرية: حركة باطنية ظهرت في القرن الثالث للهجرة، أصحابها يعدُّون من غلاة الشيعة الذين زعموا وجودًا إلهيًّا في علي وألهوه به، ومقصدهم هدم الإسلام، وهم مع كل غاز لأرض المسلمين، وأطلق عليهم الاستعمار الفرنسي لسوريا اسم العلويين، تمويهًا وتغطية لحقيقتهم الرافضية والباطنية. ينظر: الملل والنحل (١/ ١٧٢)، والموسوعة الميسرة (١/ ٣٩٠).

(٣) الدروز: فرقة باطنية، تنسب إلى أبي محمد الدرزي، ولهم معتقدات كفرية، أقبحها الاعتقاد في ألوهية الحاكم بأمر الله، ويعتقدون بنسخ الشريعة الإسلامية بشريعتهم التي ابتدعوها، وينكرون الجنة والنار، ويبغضون أهل كل الأديان خصوصًا المسلمين السنة، ويستبيحون دماءهم وأموالهم، وغير ذلك من العقائد الكفرية الباطلة. ينظر: الموسوعة الميسرة (١/ ٣٩٧).

(٤) الديوبندية: مدرسة فكرية تنسب إلى جامعة ديوبند، دار العلوم في الهند، ترجح الديوبندية مذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله في الفقه والفروع، ومذهب أبي منصور الماتريدي في الاعتقاد والأصول، وتنتسب من طرق الصوفية إلى طرق النقشبندية الجشتية والقادرية السهروردية طريقًا وسلوكًا. ينظر: الموسوعة الميسرة (١/ ٣٠٤).

(٥) البريلوية: فرقة صوفية أسسها أحمد رضا خان، ونشأت في شبه القارة الهندية الباكستانية في مدينة بريلي في ولاية أوترابراديش بالهند أيام الاستعمار البريطاني، اشتهرت بتقديس الأنبياء والأولياء، انتقلت إليهم عقائد غلاة المتصوفة والقبوريين وشركياتهم ونظرياتهم في الحلول والوحدة والاتحاد، حتى صارت هذه الأمور جزءًا من معتقداتهم. ينظر: الموسوعة الميسرة (١/ ٣٠١).

فيقال لهم: أنتم تشهدون الشهادتَيْنِ، فلماذا لا تَتَّبِعُونَ النبي ﷺ؟! إذا علمتم وقلتم: إنه رسول الله، فما معنى الرسالة؟! أليس معناها: أن تتقبَّلوا ما جاء به، وتؤمنوا برسالته؟! فالله تعالى أمركم بذلك: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، أي: اقبلوا جميع ما جاءكم به وسيروا عليه.

ومنه قول الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]؛ فقد جعل طاعته ﷺ علامةً على طاعة الله.

وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، تُسمَّى هذه الآيةُ: آيةَ المِحْنة، وآيةَ الامتحان[١]؛ وذلك لأن الله امتحن اليهود والنصارى في قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]، أي: أنه يُحِبُّنا، ونحن نُحِبُّه، فيقالُ: أَتُحِبُّونَهُ وتخالفونه وتعصون رسله؟!

أَتُحِبُّ أَعْدَاءَ الْحَبِيبِ وَتَدَّعِي ... حُبًّا لَهُ مَا ذَاكَ فِي إِمْكَانِ[٢]
حُبُّ الْكِتَابِ وَحُبُّ أَلْحَانِ الْغِنَا ... فِي قَلْبِ عَبْدٍ لَيْسَ يَجْتَمِعَانِ[٣]

فإذا كنتم تحبونه، فلا بد أن تطيعوه، وتَتَّبِعوا سُنَّةَ نبيِّه وما جاء به.

تَعْصِي الْإِلَـهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ ... هَـذَا مُحَالٌ فِي الْقِيَاسِ بَدِيعُ
لَـوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ ... إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ[١]

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٢).
(٢) البيت من نونية ابن قيم الجوزية (١/ ٢٢١).
(٣) البيت من نونية ابن قيم الجوزية (١/ ٣٢٦).
(٤) البيت في ديوان الإمام الشافعي (ص١٠)، وذكره البيهقي في شعب الإيمان (٤٩٢)، عن أبي العتاهية.

كذلك قوله تعالى في سورة الشورى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، وشركاؤهم، أي: رؤساؤهم الذين يُطيعونهم فيما حرَّم الله، وقوله: ﴿شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾، يدخُلُ فيه جميع هؤلاء المبتدعة الذين أطاعوا أكابِرَهم؛ فقد أخبر بأنَّهم يقولون يوم القيامة: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۝٦٧ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٧-٦٨]، فيقال لهم: أنتم لكم عقولٌ؛ فكيف لا تبحثون عمَّا قالوه لكم حتى تمتثلوا وتعرفوا الصواب؟!

كذلك قوله: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]، يعني: هل أَذِنَ بهذه البدع والنِّحَلِ، والمعاصِي والمحرَّمات؟! هل الله أَذِنَ لكم ورخَّص لكم: ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾، يعني: تَكْذِبون؟!

الشرط الثاني: أن يكون خالِصًا لوجه الله تعالى:

الإخلاص مشتقٌّ من الخُلُوصِ، وهو: الصَّفَاء(١)؛ تقول: خَلَّصْتُ العسَلَ من الشوائب، تعني: صَفَّيْتَهُ؛ فالعمل الخالص هو الذي يراد به وجهُ الله.

وقد استدَلَّ المؤلِّف على ذلك بعِدَّةِ آيات؛ منها قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]، الذي أمرهم هو الله؛ أمرهم أن يعبدوه، وتكون عبادتهم لله وحده خالصةً له.

كذلك قوله تعالى في أول سورة الزمر: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢]، أي: اعبد الله وأَخْلِصْ، ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، الدِّينُ الصافي الذي لا يشوبه غيره.

(١) ينظر: لسان العرب، مادة: (خ ل ص).

وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ١١]، يعني: أجعَلَ الدِّينَ خالصًا له: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٢ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٣ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ۝١٤ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: ١٢- ١٥]؛ وفي هذه الآيات تكرَّر الأمر بالإخلاص، فأولُها: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾، وآخِرُها: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾.

وهذان الشرطان لهما أهميتهما: الإخلاصُ، والمتابعةُ، وقد أشرنا قريبًا(١) إلى كلام الفضيل بن عياض في تفسير قول الله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، قال: (أخلَصُهُ وأصوَبُهُ، قيل: فَسِّرْهُ لنا يا أبا عَلِيٍّ، قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا، لم يُقْبَلْ، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا، لم يُقْبَلْ، والخالصُ: أن يكون لله، والصوابُ: أن يكون على السُّنَّة).

وذكَرَ ذلك أيضًا الصَّنْعَانيُّ(٢) رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قصيدة له بائيَّة، قال فيها:

فَلِلْعَمَلِ الإِخْلَاصُ شَرْطٌ إِذَا أَتَىٰ ... وَقَدْ وَافَقَتْهُ سُنَّةٌ وَكِتَابُ(٣)

الشرط الثالث: أن يكون مبنيًّا علىٰ أساس العقيدة الصحيحة:

والمراد: الإيمان بالغيب، أي: أن تكون القلوبُ ممتلئةً بالعقيدة الصحيحة؛ فالإنسان إذا عَمِلَ عملًا من غير عقيدة، ولو كان خالصًا وصوابًا، ولكنَّ قلبه فيه تردُّدٌ أو شكٌّ في صحة ما هو عليه، أو ما يدعو إليه، فإنه يكون غير مقبول العمل، ويُسمَّى مرائيًا، وهو داخل في الشرط

(١) تقدم (ص٨٣).

(٢) محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحَسَني، الكحلاني، ثم الصنعاني، أبو إبراهيم، عز الدين، المعروف كأسلافه بالأمير، مجتهد، من بيت الإمامة في اليمن، له نحو مائة مؤلَّف. أشهرها: سبل السلام شرح بلوغ المرام، توفي سنة (١١٨٢هـ). ينظر: الأعلام للزِّرِكْلي (٦/ ٣٨).

(٣) البيت في ديوان الأمير الصنعاني (ص ١٩).

الثاني: أن يكون العملُ خالصًا لوجه الله تعالى، وسبب الإخلاص: أن يستحضِرَ العبد أنَّ ربه سبحانه هو الذي كلَّفه، وأمره ونهاه، وإذا كان كذلك فلا بد أن يعمل له عملًا قلبيًّا، يَحْمِلُهُ على ذلك العمل ضميرُه، فيُرِيدُ بعمله وجه الله؛ وهذا مبنيٌّ على أساس العقيدة الصحيحة.

ذكَرَ المؤلِّف: أن العمل كالسقف للبيت، والعقيدةَ كالأساس؛ فالبيتُ إذا لم يكن له أساسٌ قويٌّ فإنه ينهار، فمثَّل رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالأساس والسقف؛ فلا بد أن تكون العقيدة سليمةً -وهي أركان الإيمان الستة- ليكونَ العمل ثابتًا راسخًا راسيًّا، حتى يكونَ العمل بعد ذلك مكمِّلًا؛ فالعمل يكون كالحيطانِ وكالمكمِّلاتِ للبناء وما أشبه ذلك؛ فالعقيدة كالأساس، والأساس إذا كان قويًّا ثابتًا ثبَتَ البنيان، واستمرَّ الانتفاع به.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذكر الدليل على ذلك: (قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ [النساء: ١٢٤]).

وهذا شرط من يعمل الصالحات، أي: لا بدَّ أن يكون مؤمنًا بأركان الإيمان الستة، وقيَّد ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾، ومثلُها قوله تعالى في سورة النحل: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ﴾ [النحل: ٩٧]:

أولًا: ذكَرَ أنه عَمِلَ صالحًا.

وثانيًا: ذكر شرطَهُ أنه مؤمنٌ رسَخَ الإيمان في قلبه.

قال: (وقال في غير المؤمن: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣])، فكلُّ عَمَلٍ عَمِلُوهُ يصير هباءً، والهباءُ[1]: هو الغبار الذي

---

(١) ينظر: لسان العرب، مادة: (هـ ب و).

يكون في الجو، هل يستطيع أحد أن يجمعه ويمسكه؟ أو يكون كدخان النار، إذا أُوقِدَ الحطبُ وخرَجَ منه دخان، هذا داخل في الهباء، لا يحصُلُونَ منه على شيء!

قال: (وقال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٦])؛ توعَّدهم بأنهم ليس لهم في الآخرة إلا النار؛ وذلك لأنهم لم يُخلِصوا، ولم تكن أعمالهم على العقيدة الصحيحة، ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ﴾، أي: ما عملوه، ﴿وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، أي: أن عملهم كان في نفسه باطلًا غيرَ مُعْتَدٍّ به.



المسألة الرابعة

تحكيم غير الشرع الكريم



قال الشِّنْقِيْطِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[المسألة الرابعة: التي هي تحكيمُ غيرِ الشرعِ الكريمِ:

فقد بيَّن القرآنُ أنها كُفْرٌ بَوَاحٌ، وشركٌ بالله تعالى، ولمَّا أوحى الشيطان إلى كفَّار مكة أن يسألوا نبيَّنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الشاةِ تصبحُ مَيْتةً: مَنْ قتلها؟ فقال: «اللهُ قَتَلَهَا»، فأوحى إليهم أن يقولوا له: ماذَبحتُمُوهُ بأيديكم حلال، وما ذبحه الله بيده الكريمة حرام؟! فأنتم إذَنْ أحسَنُ من الله-: أنزَلَ الله: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١][(١)].

وعدَمُ دخول الفاء على جملة: ﴿إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾، قرينةٌ ظاهرةٌ على تقدير لامِ توطئةِ القَسَم؛ فهو قسَمٌ من الله أقسَمَ به جَلَّ وَعَلَا في هذه الآية الكريمة: على أن مَنْ أطاع الشيطانَ في تشريعِهِ تحليلَ الميتةِ: أنَّه مُشرِكٌ، وهو شركٌ أكبرُ مُخرِجٌ عن المِلَّةِ الإسلاميَّةِ بإجماع المسلمين، وسيوبِّخُ اللهُ يومَ القيامة مرتكِبَهُ بقوله: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ [يس: ٦٠-٦١].

وقال تعالى عن خليله: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ [مريم: ٤٤]، أي: باتِّباعه في تشريع الكفر والمعاصي.

وقال: ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا﴾ [النساء: ١١٧]، أي: ما يعبُدُونَ إلا شيطانًا، وذلك باتِّباعهم تشريعه.

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الضحايا، باب في ذبائح أهل الكتاب، حديث رقم (٢٨١٩)، والترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الأنعام، حديث رقم (٣٠٦٩)، والنسائي، كتاب الضحايا، باب تأويل قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾، حديث رقم (٤٤٣٧)؛ من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال الترمذي: (حسن غريب). وينظر: تفسير الطبري (٩/ ٥٢٦).

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ الآيةَ [الأنعام: ١٣٧]، فسمَّاهم: شركاءَ؛ لطاعتهم لهم في معصية الله بقتل الأولاد.

ولمَّا سأل عَدِيُّ بنُ حاتمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا﴾ [التوبة: ٣١]؟ أجابه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن معنى اتِّخاذهم أربابًا: هو اتِّباعهم لهم في تحريم ما أَحَلَّ الله، وتحليل ما حرَّمه(١).

وهذا أمرٌ لا نِزاعَ فيه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام: ١١٤]، وقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقوله: ﴿صِدْقًا﴾، أي: في الأخبار، ﴿وَعَدْلًا﴾، أي: في الأحكام، ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]].

الشَّرح

المسألة الرابعة: تحكيمُ غيرِ الشرعِ الكريمِ:

ويُعَبَّرُ عنها بتحكيم القوانين الوَضْعيَّة، التي استحسنتها نفوسُ قومٍ

(١) أخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة التوبة، حديث رقم (٣٠٩٥)، والطبري في تفسيره (١١/ ٤١٧)، والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب آداب القاضي، باب ما يقضي به القاضي ويُفتِي به المفتي (١٠/ ١٩٨)، قال الترمذي: (هذا حديث غريب).

يَدَّعُونَ أنهم مُسْلِمون(١)، خالَفُوا حُكْمَ الله وشَرْعَه، وحكَمُوا بغير ما أنزل الله؛ فلذلك يُطلَقُ عليهم: أنهم قد كفروا بذلك؛ حيث تركوا حكم الشرع الشريف وغيَّرُوهُ، وزعَمُوا أنَّه لا يناسِبُ الحالَ، ولا يناسِبُ هذه الأوقات، وأنَّ أحكام الشرع قديمةٌ، وقد تغيَّرت الأحوال؛ حيث مضى عليها أربعةَ عشَرَ قرنًا، فلا تناسب هذا الزمان الذي قد تطوَّر الناس فيه، وتغيَّرت أفكارهم وأحوالهم؛ فلأجل ذلك فتحوا هذا الباب، وصاروا يَحْكُمُونَ بالقوانين!

وقد أخذوا هذه القوانين قديمًا من كبير التتار(٢) وغيره، ثم أخذوها من الكُفَّار المعاصرين، وكُلُّ طائفةٍ جعَلَتْ لها حُكْمًا تَرْجِعُ إليه، وأصبحوا لا يأخذون من الإسلام إلا الشيء الذي يناسبهم.

---

(١) قال الشيخ ابن جِبْرين رَحِمَهُ اللهُ في الإجابة عن أسئلة هذا الكتاب: (يتسمَّوْنَ بالإسلام ظاهرًا، ونقول: إنهم يَدِينونَ بالإسلام، عندهم مساجد، وعندهم مؤذِّنون، ويشهدون الشهادتين، وعندهم القرآن يقرؤون فيه، وإن كانوا قد استحسنوا هذه العادات، قد يقولون: إن الآيات فيمن لم يقبل شيئًا من الإسلام، ومن لم يحكُمْ، نحن نحكُمُ بالقرآن في مواضع كثيرة، على كل حال: تسميتهم مسلمين من حيث الظاهر، وأمرهم إلى الله، ولا نقرُّهم على تلك القوانين).

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٣١) عند قول الله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾: (كما يحكُمُ به التتار من السياسات المَلَكية المأخوذة عن ملكهم جنكيزخان، الذي وضع لهم: الياسق، وهو عبارة عن: كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها عن شرائع شتى، من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعًا متبعًا، يقدِّمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن فعل ذلك منهم، فهو كافر يجب قتاله، حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فلا يحكِّمَ سواه في قليل ولا كثير) اهـ.

فمثلًا: منعوا تعدُّد الزوجات؛ بدعوى أن هذا ظلمٌ، فكما أن المرأة لا جمع بين زوجَيْنِ، فكذلك الرجل لا يجمع امرأتين أو أكثر؛ استحسنوه تقليدًا أعمى.

كذلك منعوا الطلاق؛ فكثيرٌ منهم إذا زوَّجوا امرأة ألزموا ذلك الزوج بها دائمًا.

وأيضًا: غيَّروا فرائض الله -المواريث- فيَحْرِمُونَ الإناثَ (البنات والأخوات) ونحو ذلك، كما فعَلَ الجاهليون قبل الإسلام، وجعلوا للزوجة ميراثًا كميراث الرجل (الزوج)، وأشباه ذلك.

وأيضًا: غيَّروا كثيرًا من الأحكام حتى في العبادات، اجتهدوا فيها بزَعْمهم؛ فالزكاة كأنهم يقولون: إنها ظُلْم، وإن الإنسان عليه أن يتكَّسب، ولا ينتظِرَ أن يأخذ من مال غيره، وكذلك الصيام أسقطوه وفَدَوْا.

وهكذا البيوع أباحوا أشياءَ كثيرةً مما حرَّمه الله؛ فمثلًا: أجازوا الصرف يدًا بيد، بغير ذلك، ولذلك تشتمِلُ كثير من البنوك على معاملاتٍ تخالف الشرع، وعلى كثير من الربا الصريح.

فالحاصلُ: أن هذا عَمَلُهم، ويصدُقُ فيهم قول الله تعالى في وصف اليهود: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥].

أتذكَّر في نحو سنة خمس وتسعين وثلاثمائة وألف، كنتُ إمامًا في مسجد، ويَقْرَأُ علينا أحد القراء في التفسير، ومرَّت علينا هذه الآية، ولكنِّي ما علَّقتُ عليها، وكان ممن حضر عندنا الشيخ عبد الرحمن بن

محمد الدّوسري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]، وبعد الصلاة عاتبني: لماذا لم تعلِّقْ على هذه الآية؟! فإنَّها تحكي واقع أهل زماننا؛ يؤمنون ببعض الكتاب ويَكْفُرُونَ ببعض، لا يأخذون من الكتاب ولا من الشرع إلا ما يناسِبُ أهواءهم، يتركون كثيرًا من الشرعيَّات، فتكلَّمْ عنها وبيَّنَ مطابقة ما فيها - من حال اليهود - لهؤلاء، وذِكْرُ جزائهم في هذه الآية: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥]، وعيدٌ شديدٌ لمثل هذا.

ومثلها: آيات في سورة النساء، وهي قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١]. الذين يؤمنون ببعض الرسل ويَكْفُرُونَ ببعض هم الكافرون حقًّا؛ وذلك لأن الإيمان بالشرع يجبُ أن يكون إيمانًا به كله، وأن يكون العمل به كله.

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فقد بيَّنَ القرآن)، أي: بيَّن الله تعالى في القرآن: (أنها **كُفْرٌ بَوَاحٌ**)، أي: تحكيمُ غير الشرع، كتحكيم القوانين، (**وشركٌ بالله تعالى**)؛ حيث إنه طاعة للشياطين، وطاعة لعُبَّادِ الشياطين.

قال: (**ولمَّا أوحىٰ الشيطانُ إلىٰ كفَّار مكة أن يسألوا نبيَّنا** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **عن الشاة تُصبِحُ مَيْتةً: مَن قَتَلَها؟ فقال: «اللهُ قَتَلَهَا»، فأوحىٰ إليهم أن**

(١) عبد الرحمن بن محمد بن خلف آل نادر الدوسري، من مشايخ نجد المشهورين، ولد عام ١٣٣٢ هـ، واشتغل بالتجارة مع قيامة بالدعوة، وله نحو أربعين كتابًا، أشهرها: تفسيره -صفوة الآثار-، توفي عام ١٣٩٩هـ. ينظر: علماء نجد خلال ثمانية قرون للبسام (٣/ ١٦٣)، وتتمة الأعلام لمحمد خير رمضان (١/ ٢٨٢)، وسيرة الشيخ عبد الرحمن الدوسري لسليمان الطيار.

يقولوا له: ما ذبَحْتُمُوهُ بأيديكم حلال، وما ذبَحَهُ اللهُ بيدِهِ الكريمةِ حرام؟! فأنتم إذنْ أحسَنُ من الله)!

هذه شبهة شيطانية؛ فاللهُ تعالى حرَّم المَيْتةَ، وما ذاك إلا لأن الدم يتحجَّر فيها؛ فإذا لم تُذْبَحْ، جَمَدَ الدم في عروقها، وأفسَدَ لحمَها؛ ولأجل ذلك يُسْرِعُ إليها التغيُّر والنَّتْنُ، وكذلك يحدُثُ فيها تولُّدُ الدود، وهذا دليل على أنها خبيثة، والله تعالى حرَّمها في مواضعَ كثيرةٍ، ولكنَّ المشركين كانوا يستحسِنُونَها ويأكُلُونَها؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ [الأنعام: ١٣٩]، إذا وجدوا ميتة فإنهم يأكلونها مع إناثهم، وقبل ذلك يجعلون للذكور شيئًا يخُصُّهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ [الأنعام: ١٣٩]، ذلك مما أوحى الشيطان إليهم؛ وهذا دليل على مخالفتهم للشرع.

وقد أنزل الله هذه الآية: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]، و﴿مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾: المَيْتةُ(١)، ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾، يعني: أَكْلُكُم ممَّا لم يُذْكَرِ اسم الله عليه، ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾، يعني: يُوحُون لهؤلاء الذين يَدَّعُونَ أن الميتة حلال لأن الله ذبحها؛ ليجادلوكم، ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾؛ فالله تعالى حرَّم الميتة لأمرين:

الأول: أنَّه لم يُذكَرْ عليها اسم الله، ولو أن الله تعالى هو الذي أماتها.

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (٩/ ٥٢٨).

والثاني: أنها مُنْتِنةٌ؛ يُسرِعُ إليها التغيُّرُ، ويتحجَّرُ الدم فيها.

فلذلك قال: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾.

قال: (وعدَمُ دخول الفاء على جملة: ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾، قرينةٌ ظاهرةٌ على تقدير لام توطئة القسم)، يعني: اللام المقدَّرة، والأصل: (لَئِنْ أطعتموهم)؛ كأنَّه يقول: والله لَئِنْ أطعتموهم، إنكم لمشركون[1]، (فهو قسَمٌ من الله أقسَمَ به جَلَّوَعَلَا في هذه الآية الكريمة: على أن من أطاع الشيطانَ في تشريعِهِ تحليلَ الميتةِ: أنه مُشركٌ)؛ وذلك لأنه أطاع غيرَ اللهِ فيما شرَعَهُ اللهُ، (وهو شرك أكبر مُخرِجٌ عن المِلَّةِ الإسلامية بإجماع المسلمين[2]، وسيوبِّخُ اللهُ يومَ القيامة مرتكبهُ بقوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٠])، وبنو آدم: البشَرُ كلُّهم، عَهِدَ الله إليهم: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾، وعبادتُهُ هي: طاعته في المعاصي، ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[يس: ٦٠-٦١].

قال الشيخ: (وقال تعالىٰ عن خليله)، أي: إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ (﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [مريم: ٤٤])، وعبادته: اتِّبَاعُه في تشريع الكفر والمعاصي، ذكَرَ العلماء: «أنَّ كل من عبَدَ غيرَ اللهِ، إنَّما عبَدَ الشياطين»[3]، ولمَّا نزَلَ قولُ اللهِ تعالى في سورة الأنبياء: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ

---

(١) قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ في العذب النَّمِير (١/ ٣٧٢): (وهذه الآية الكريمة من سورة الأنعام هي عند علماء العربية مثالٌ لحذف لام توطئة القسم، قالوا: والأصل: «ولئن أطعتموهم»؛ فحذفت اللام الموطِّئة للقسم، قالوا: والقرينة على لام القسم: أنه لو كان الشرط وحده ليس معه قسم، لاقترنت الجملة بالفاء، لقال: (وإن أطعتموهم، فإنكم لمشركون)، فلما لم تقترن بالفاء، علمنا أن عدم اقترانها بالفاء لأنها جواب القسمِ المقدَّرِ المحذوفةِ لامُهُ؛ لقرينة عدم الفاء). أهـ.

(٢) ينظر: أضواء البيان (٣/ ٤١).

(٣) ينظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٥٩٣).

أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، قال بعضُ المشركين: يا محمَّد، أتزعُمُ أنَّا وما نعبُدُ حصَبُ جهنَّم؟ فنحن نعبُدُ الملائكةَ، والنَّصارى يعبدون عيسى، واليهودُ يعبدون عُزَيْرًا ويعبدون الصالحين، أهؤلاء كُلُّهم حصَبُ جهنَّم؟! فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إنَّهم إنما عبَدُوا الشياطين، والشياطينُ هي التي أضلَّتهم[1]، ونزَلَ قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، أي: مُبْعَدُونَ عن جهنَّم، ومنهم: الأنبياء، والملائكة، والصالحون، ولو عُبِدُوا؛ فإنهم عُبِدُوا بغير إذن منهم، وبغير رضاهم.

قال الشيخ: (وقال تعالىٰ: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴾ [النساء: ١١٧] أي: ما يعبدون إلا شيطانًا؛ وذلك باتِّباعهم تشريعه، وقال تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ ﴾ [الأنعام: ١٣٧]؛ فسمَّاهم: شركاءَ؛ لطاعتهم إياهم في معصية الله بقتل الأولاد):

أي: أن رؤساءهم وسادتهم، لما قالوا: (اقتلوا أولادكم)، قتَلُوا أولادهم، فمنهم من يقتل الإناثَ مخافة العار، ومنهم من يقتل الذكورَ والإناثَ خشيةَ الفقر! وكل ذلك حرَّمه الله: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴾ [الإسراء: ٣١]؛ فأخبر أن المشركين أطاعوا شياطينَهم، وأطاعوا شركاءهم، وسيتبرَّأ منهم أولئك الشركاء، ذكَرَ الله أنهم يقولون: ﴿ مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ۝٢٨ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴾ [يونس: ٢٨-٢٩]، أي: لم نشعُرْ بعبادتكم.

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٦/ ٤١٩)، والبحر المحيط لأبي حيَّان (٧/ ٤٧٠)

قال الشيخ: (ولما سأل عَدِيُّ بنُ حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا﴾ [التوبة: ٣١]).

هذه الآية في سورة التوبة سمعها عَدِيٌّ، وكان قبل إسلامه قد تنصَّر، فقال: إنهم لم يعبدوهم، فأجابه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن معنى اتِّخاذهم أربابًا: اتِّباعُهم لهم في تحريم ما أحَلَّ الله، وتحليل ما حرَّم الله، رُوِيَ هذا الحديث في السنن، وفي غيرها(١)، وذكره الشيخ محمد بن عبد الوهاب في (كتاب التوحيد): لسنا نعبُدُهم، قال: «أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتُحِلُّونَه؟!»، قال: فقلتُ: بَلَى، قال: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»(٢)؛ اتخذوهم أربابًا، يعني: أطاعوهم؛ وهذا أمرٌ لا نزاع فيه بين العلماء.

واستدَلَّ المؤلِّف بهذه الآية في سورة النساء: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠]؛ ذُكِرَ أنه كانت بين رجلٍ من المنافقين ورجلٍ من اليهود خصومةٌ، فقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود؛ لِعِلْمِهِ أنهم يأخذون الرِّشْوة، وقال اليهوديُّ: نتحاكم إلى محمَّد؛ لأنه يحكُمُ بالحق، فاصطلحا على أن يتحاكما إلى أحد طواغيت جُهَيْنَةَ؛ فنزلت هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ

(١) أخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب: التوبة، حديث رقم (٣٠٩٥)، والطبراني في المعجم الكبير (٢١٨)، والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب آداب القاضي، باب: ما يَقضِي به القاضي ويُفتِي به المفتي (١٠/ ١٩٨)، قال الترمذي: (غريب).

(٢) ينظر: كتاب التوحيد، باب: من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم الله، فقد اتخذهم أربابًا من دون الله (ص ١٠٢)؛ وهذا اللفظ عند البيهقي في السنن (١٠/ ١٩٨).

أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٦٠][1]، تحاكَمُوا إلى ذلك الكاهن، أو يريدون أن يفضِّلوا حكم ذلك الكاهن، ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾؛ أُمِرُوا أن يكفروا به في آيات كثيرة؛ كما في قوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١]، لا يَقبَلُونَ ما شرعه الله.

فهذه حالة هؤلاء الذين يحكِّمونَ الطواغيت.

وكذلك في سورة المائدة ثلاثُ آياتٍ متتابِعاتٍ في حال مَنْ لم يحكُمْ بما أنزل الله:

الأولىٰ: قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

والثانية: قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

والثالثة: قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧].

وبعض العلماء يقول: الأُولى في اليهود: (كافرون)، والثانية في النصارى: (ظالمون)، والثالثة في المشركين: (فاسقون)[2]، **والصحيح**: أنها عامَّةٌ فيهم كلِّهم، فكلُّ من لم يحكُمْ بما أنزل الله، وأعرَضَ عن حكم الله، واستبدَلَهُ بغيره، يقال: إنه كافر، ظالم، فاسق، تجتمع فيه هذه الخصال.

وهكذا في أواخر الآيات قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾، يعني:

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ١٨٩)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٤٧).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٨/ ٤٥٨).

مَرْجِعًا، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٤-١١٥].

هذه الآيات في سورة الأنعام: إنكارٌ على الذين لا يحكِّمونَ شرع الله: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾، أي: أفغير شرع الله نتراجعُ ونترافع إليه؟! كالذين ذكرهم الله بقوله: ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٤٨-٥١].

فهذه حال هؤلاء، وحال هؤلاء، والله تعالى يقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾، من المتقدِّمين ومن المتأخِّرين: ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾، وإذا كان منزَّلًا وحقًّا وجب عليهم أن يتَّبعوه؛ ولذلك قال: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾، أي: من أهل الشك والمِرْية، ثم قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، أي: أنَّ كلامَ الله تامٌّ كاملٌ ليس فيه هزل، ولا خطأ، ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾، لا يجوز أن يتعدَّى أحدٌ ويغيِّرَ كلمات الله، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، وقوله: ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام.

ثم قال في أواخر الآيات في سورة المائدة: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، سمَّى التحاكُمَ إلى تلك العادات: حُكْمَ الجاهلية، والجاهليةُ: ما قبل الإسلام؛ سُمُّوا بذلك لكثرة جهلهم، ولأنَّ أعمالهم كلَّها صادرة عن جهل.

نهى الله في هذه الآيةِ عن حكم الجاهلية، وذكَرَ الجاهلية أيضًا في آيات أخرى؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]،

وفي قولـه تعالـى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحـزاب: ٣٣]، وفي سـورة الفتـح: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتـح: ٢٦]، وكلُّ ذلـك للـذمِّ؛ إذْ ذُكِـرَتْ باسـم الجاهليـة.

فهكذا يُعْرَفُ حكم هؤلاء الذين يتحاكمون إلى غير شرع الله.

المسألة الخامسة

أحوالُ الاجتماعِ



قال الشِّنْقِيْطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

[المسألة الخامسة: التي هي أحوالُ الاجتماعِ:

فقد شفى فيها القرآنُ الغليلْ، وأنار فيها السبيلْ:

فانظُرْ إلى ما يأمُرُ الرئيسَ الكبيرَ أن يفعلَهُ مع مجتمعه: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وانظُرْ إلى ما يأمُرُ المجتمَعَ العامَّ أن يفعلَهُ مع رؤسائه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

وانظُرْ إلى ما يأمُرُ الإنسانَ أن يفعلَهُ مع مجتمعه الخاصِّ - كأولاده وزوجته -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وانظُرْ كيف ينبِّهُهُ على الحذر والحزم مع مجتمعه الخاصِّ، ويأمُرُهُ إنْ عثَرَ على ما لا ينبغي أن يعفُوَ ويَصْفَحَ؛ فيأمُرُهُ أولًا: بالحزم والحذر، وثانيًا: بالعفو والصفح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

وانظُرْ إلى ما يأمُرُ أفرادَ المجتمعِ العامِّ أن يتعاملوا به فيما بينهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا

مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الحجرات: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢]، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، إلى غير ذلك.

ولمَّا كان المجتمعُ لا يَسْلَمُ فردٌ من أفراده -كائنًا مَنْ كان- من مُناوِئٍ يُناوِئه، ومُعادٍ يُعادِيه؛ من مجتمَعِهِ الإنسيِّ والجِنِّيِّ:

لَيْسَ يَخْلُو الْمَرْءُ مِنْ ضِدٍّ وَلَوْ حَاوَلَ الْعُزْلَةَ فِي رَأْسِ الْجَبَلْ[1]

وكان كلُّ فردٍ محتاجًا إلى علاج هذا الداء الذي عمَّت به البَلْوى-: أوضح تعالى علاجَهُ في ثلاثة مواضعَ من كتابه، بيَّن فيها أن علاج مناوأة الإنسيِّ هو: الإعراضُ عن إساءته، ومقابلتُها بالإحسان، وأن شيطان الجن لا علاج لدائه إلا الاستعاذةُ بالله من شرِّه:

الموضع الأول: قوله تعالى في أخريات الأعراف في الإنس: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وفي نظيره من شياطين الجن: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

الموضع الثاني: في سورة المؤمنون؛ قال تعالى في الآية: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، وفي نظيره الآخر: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧-٩٨].

الموضع الثالث: في فصِّلت، وقد زاد فيه تعالى التصريح بأن ذلك العلاجَ السماويَّ يَقْطَعُ ذلك الداءَ الشيطانيَّ، وزاد فيه أيضًا: أن ذلك

---

(١) البيت من لامية ابن الوَرْدي. ينظر: ديوانه (ص ٢٨٠).

العلاج السماويَّ لا يُعطى لكل الناس؛ بل لا يُعطاهُ إلا صاحبُ النصيبِ الأوفر، والحظِّ الأكبر؛ قال فيه في الآية: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥]، وقال في نظيره الآخر: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

وبيَّن في مواضعَ أخرى: أن ذلك الرِّفْقَ واللِّينَ لخصوصِ المسلمين دون الكافرين؛ قال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣، والتحريم: ٩]؛ فالشدَّةُ في محلِّ اللِّينِ: حُمْقٌ وخَرَقٌ، واللِّينُ في محلِّ الشدَّةِ: ضَعفٌ وخَوَرٌ.

إِذَا قِيلَ: حِلْمٌ، قُلْ: فَلِلْحِلْمِ مَوْضِعٌ وَحِلْمُ الْفَتَىٰ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ جَهْلُ[١]].

الشَّرح

هذه المسألة تتعلَّق بأحوال المجتمع الإسلامي؛ فهم مأمورون بأن يتآلفوا فيما بينهم، وأن يَصْحَبَ كلٌّ منهم إخوته صحبةً حسنةً؛ حتى يكونوا إخوة كما سمَّاهم الله؛ فكُلُّ رئيس يَلِينُ لِمَنْ تحته، وكُلُّ من كان رفيعَ المقدار يَخْفِضُ جناحَهُ ويتواضعُ لِمَنْ تحته من الضعفاء؛ وبذلك تحصُلُ الألفة، والتكاتف، والتعاون على الخير وعلى البر والتقوى، وإذا ائتلفوا كلُّهم واجتمعت كلمتهم، فإنهم يكونون يدًا واحدة على أعدائهم.

(١) البيت لأبي الطيب المتنبي، وهو في ديوانه (ص٤٥).

أمـا إذا تفرَّقـوا وتحزَّبـوا فـإن هـذا التفـرُّقَ يضيـع معنوياتِهـم؛ قـال الله تعالـى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، يعنـي: أنـت بـريء منهـم؛ ذكَـرَ الله أنهـم فرَّقـوا دينهـم، وأنهـم كانـوا شـيعًا، يعنـي: أحزابًـا، وقـال تعالـى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣١-٣٢].

مـا أعظـم توجيـه المسـلمين أن يتآلفـوا ويزيلـوا مـا بينهـم مـن الخلافـات؛ سـواءٌ كانـت تلـك الخلافـاتُ خلافـاتٍ دنيويَّـةً علـى أمـور تافهـةٍ، أو كانـت خلافـاتٍ دينيَّـة علـى اجتهـادات خاطئـةٍ، كان الأَوْلـى بهـم أن يجتمعـوا، وإذا كان أحدهـم عنـده رأي، فإنـه يعـرض رأيـه علـى مـن هـو أفضـل منـه حتـى يُزِيـلَ تلـك الشـبهة، ويكونـوا أمَّـةً واحـدة كمـا أمرهـم الله؛ قـال الله تعالـى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢]؛ فالأُمَّـةُ واحـدة، وربُّهـم واحـد، ونبيُّهـم واحـد، وتشـريعُهم واحـد، وهـو القـرآن والسـنة، ودينهـم واحـد، وهـو الإسـلام، وإذا كان كذلـك، فمـا الموجـب لهـذه المقاطعـات والعـداوات؟! إن الواجـب عليهـم أن تجتمـع كلمتهـم، ويتفقـوا علـى عقيـدة واحـدة، وسـيرة واحـدة؛ حتـى تَقْـوَى معنويَّاتهـم.

قـال الشِّـنْقِيْطِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**شـفىٰ فيهـا القـرآنُ الغليـل**)، الغليـلُ: مـا في القلـوب مـن الغُـلِّ ونحـوه[1]، (**وأنـار فيهـا السـبيل**)، يعنـي: الـذي يسـار عليـه سـيرًا معنويًّـا، (**فانظُـرْ إلـىٰ مـا يأمـر الرئيـسَ الكبيـرَ أن يفعلـه مـع مجتمعـه**)، يعنـي: أن النبـي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رئيـسُ هـذه الأمَّـةِ وأفضلُهـم؛ يقـول الله تعالـى لـه: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢١٥ فَإِنْ عَصَوْكَ﴾، يعنـي: لـم يوافقـوا،

(١) الغَلِيلُ: مـن الغُـلِّ، وهـو بالضـم: العطـش، وبالكسـر: العـداوة والضغينـة. ينظـر: تـاج العـروس (٣٠/ ١١٤): (غ ل ل).

﴿فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٥-٢١٦]؛ أمره الله أن يلين لمَن معه من المؤمنين، ولا يستعمِلَ القسوة.

وقال تعالى في سورة آل عمران: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾، أي: أنك لَيِّنٌ معهم: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾، لو رَأَوْا منك شدَّةً وغِلْظةً وتثقيلًا، لما أقاموا معك، وانفضُّوا وهربوا، ولكنَّ الله تعالى مَنَّ عليه فصار ليِّنًا لهم؛ لذلك قال: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾، يعني: إذا صدر من أحدهم شيء من الغِلْظة، أو الجفوة، فاعْفُ عنه، ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ومع أن الله تعالى يُنزِلُ عليه الوحي أمره بالمشاورة.

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وانظر إلىٰ ما يأمُرُ المجتمَعَ العامَّ أن يفعلَهُ مع رؤسائه)**. مجتمَعَ المسلمين عمومًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، أي: الأمراءَ ونحوهم، يعني: أطيعوهم، وأعينوهم على طاعة الله، والطاعةُ تكونُ في المعروف.

قال: **(وانظُرْ إلىٰ ما يأمُرُ الإنسانَ أن يفعلَهُ مع مجتمعه الخاصِّ؛ أولاده وزوجته**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ﴾)، أنقذوا أنفسكم وأهليكم: (﴿نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦])؛ وهذا إرشاد من الله لكُلِّ فرد أن ينصح أولاده وزوجاته وأهل بيته الذين هم أقاربه، أن يَقِيَ نفسه ويَقِيَ أهله من هذه النار، بمعنى: أنه مأمورٌ ومسؤولٌ على ما في الحديث: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»[1].

(١) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب: ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾، حديث رقم (٥١٨٨)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية، حديث رقم (١٨٢٩)؛ من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

قال: (وانظُرْ كيف ينبِّهُهُ علىٰ الحذر والحزم في مجتمعه الخاصِّ)؛ يأمره أن يكون حذرًا حازمًا مع أهل بيته، (ويأمُرُهُ إن عثَرَ علىٰ ما لا ينبغي)، أو رأى من أهله شيئًا يخالف: (أن يعفو) عنهم، (ويصفح؛ فيأمره أولًا: بالحزم والحذر، وثانيًا: بالعفو والصفح)؛ يقول تعالى في ذلك: (﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤])، أي: احذروا عداوتهم، وقد فَهِمَ بعض المفسِّرين أن العداوة هي: المخالفة والقطيعة ونحوها، وبعض العلماء ذكر أنها ليست عداوةً ظاهرةً، وإنما هي: عداوةٌ دينيَّةٌ[1].

قال بعض العلماء[2]: إنهم على ما جاء في الحديث: «الوَلَدُ مَجْبَنَةٌ مَبْخَلَةٌ»[3]، يحمل أباه على الجبن والبخل؛ فيكون ذلك عداوةً منهم، أو أنه يفعل ذلك من نفسه وإن لم يكن هناك أمرٌ من أهله؛ فالآيةُ عامَّةٌ، وقد يوجد أولاد عادَوْا آباءهم، وقطعوهم، وعصوهم معصيةً ظاهرةً، فكانوا عدوًّا لهم، حتى يتمنَّى بعض الآباء أن يتمكَّن من ولده ويقتلَهُ؛ لِمَا لَقِيَ منه من العناء، وقد تكون العداوة عداوةً دينيَّةً:

فعلى القول الأول: أمَرَهم بأن يعفوا، ﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ﴾ [التغابن: ١٤]، إذا عفَوْا وصفَحُوا وغفَرُوا، رجعت الألفة؛ فإن الأصل في الأولادِ إذا رأوا من آبائهم العفو والتجاوز، فإنهم بلا شك يكونون مع آبائهم.

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (٢٣/ ١٤).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٨/ ١٣٩).

(٣) أخرجه أحمد في المسند، حديث رقم (١٧٥٦٢)، وابن ماجه، كتاب الأدب، باب: بر الوالدين، والإحسان إلى البنات، حديث رقم (٣٦٦٦)، والحاكم في المستدرك، كتاب معرفة الصحابة، باب: مناقب الحسن والحسين (٣/ ١٧٩)، من حديث يعلى العامري رضي الله عنه، قال الحاكم: (حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرِّجاه).

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وانظر إلىٰ ما يأمُرُ أفرادَ المجتمعِ العامِّ أن يتعاملوا به فيما بينهم**)؛ فجميعُ الخلق، وأفراد المجتمع، بأي شيء يتعاملون حتى يكونوا صالحين؟ (﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]).

قال بعض العلماء[١]: إن هذه الآيةَ جامعةٌ، آمِرةٌ بالخير كلِّه، وناهيةٌ عن الشرِّ كلِّه؛ ولأجل ذلك أمر عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ الخطباء أن يقرؤوها في خُطَبهم[٢]، ولا يزالون يقرؤونها؛ لما فيها من الجَمْع بين ما هو محبوب، والتحذير عما هو مرهوب؛ فالعدلُ والإحسان وإيتاء ذي القربى هذه أفعال طيِّبة، والفحشاء والمنكر والبغي هذه محرَّمة.

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقال تعالى**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ﴾ [الحجرات: ١٢])؛ وهذا يراد به: الظن الخاطئ الذي ليس عليه دليل.

قال عمر بن الخطَّاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ[٣]: «لا تظُنَّ بكلمةٍ خرَجَتْ من أخيك شرًّا وأنت تَجِدُ لها في الخير مَحْمَلًا»، وجاء في الحديث قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا إِخْوَانًا...**»، إلى آخر الحديث[٤]؛

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٣/ ٣٣٧).

(٢) ينظر: تاريخ الخلفاء (ص١٨٢).

(٣) أثر أخرجه ابن أبي الدنيا في مداراة الناس، برقم (٤٥)، والبيهقي في شعب الإيمان، برقم (٧٩٩٢).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب لا يخطُبْ على خِطْبة أخيه حتى ينكح أو يدع، حديث رقم (٥١٤٣)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها، حديث رقم (٢٥٦٣)؛ من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

فنهى الله تعالى عن الظن: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾، يعني: ليس كلُّه؛ فقد يكون بعضُهُ صوابًا إذا كانت هناك أمارات.

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾، التجسُّسُ: تَتَبُّعُ العَوْراتِ والهَفَوات، ورَدَ أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ، وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ، لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ؛ فَإِنَّهُ مَنِ اتَّبَعَ عَوْرَاتِهِمْ، يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ**»(١).

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾، والأدلة على تحريم الغِيبَةِ كثيرة، وفسَّرها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «**ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ**»(٢)، فلو كان حاضرًا، لم تذكره، أو إذا ذكرته، فإنه يغضب ويحقد عليك أو يرد عليك، فإذا كان غائبًا، ذكرته بأشياء لا يحبُّها فإن هذه هي الغِيبة.

ثم ذكَرَ المؤلِّف الآية التي قبلها في سورة الحجرات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١]، والسخريةُ هي: التنقُّصُ والاستهزاءُ والتهكُّمُ بالإنسان، وذِكْرُ معايبِهِ ومَثَالِبِهِ، وتتبُّعُ شفواتِه، ومع ذلك يكتم حسناتِه، ويكتم أفعالَهُ الصالحة، كأنه ليس له حسنة يمدح بها، أما الهفوات، فإنه يفشيها وينشرها، وصدَقَ من يقول في وصف بعض أعدائه:

صُمٌّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِرْتُ بِهِ   وَإِنْ ذُكِرْتُ بِسُوءٍ عِنْدَهُمْ أَذِنُوا

إِن يَسْمَعُوا سَيِّئًا طَارُوا بِهِ فَرَحًا   مِنِّي وَمَا سَمِعُوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا(٣)

---

(١) أخرجه أحمد في المسند حديث رقم(١٩٧٧٦)، وأبو داود، كتاب الأدب، باب في الغِيبة، حديث رقم (٤٨٨٠)؛ من حديث أبي بَرْزة الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الغِيبة، حديث رقم (٢٥٨٩)؛ من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) القائل: قَعْنَبُ بنُ ضَمْرة بن أم صاحب. ينظر: شرح ديوان الحماسة (٢/ ١٨٧)، وعيون الأخبار لابن قتيبة (٣/ ٨٤).

يعني: استمَعُوا وفتحوا آذانهم له، وهذا حال كثير من الذين يتتبعون عورات المسلمين.

وقال تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾، يقول العلماء: (عسى من الله واجب)[1]، ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١]، يعني: إخوانكُمْ، واللَّمْزُ: هو العيب؛ قال الله تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، والهَمْزُ: هو العيب الخفي، واللَّمْزُ أجهر من الهمز[2]، ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾، اللقبُ الذي يُذكَرُ به على أنه عيبٌ؛ ولذلك يقول الشاعر:

أَكْنِيهِ حِينَ أُنَادِيهِ لِأُكْرِمَهُ ... وَلَا أُلَقِّبُهُ وَالسَّوْءَةَ اللَّقَبَا[3]

﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾، سمَّى الله التنابُزَ: فُسُوقًا، ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[الحجرات: ١١].

وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢]، البِرُّ: فعلُ الأوامر، والتقوى: تركُ النواهي والزواجر، والإثمُ: كل ما هو محرَّم، والعدوانُ: الاعتداء على الناس، على أموالهم أو أبدانهم أو أعراضهم؛ والأدلَّة على ذلك كثيرة.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، يعني: أخوَّةً إيمانيَّة، وقال تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، يعني: كالإِخْوة من النسب، وقال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، يعني: أنهم يتشاورون فيما بينهم.

---

(١) ذكر هذا كثير من المفسرين، ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٩٠٥) برقم (٥٠٤٤) بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) ينظر: الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري، (٥٤).

(٣) البيت أورده أبو تمام في ديوان الحماسة، ونسبه إلى بعض الفزاريين، ولم يعيِّنه. ينظر: شرح ديوان الحماسة (ص ٨٠٥)، وأساس البلاغة، مادة: (ل ق ب).

قال الشِّنْقِيْطِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولمَّا كان المجتمعُ لا يَسْلَمُ فردٌ من أفراده - كائنًا مَنْ كان - مِن مُناوِئٍ يناوِئه)، عادة ما يجد كلُّ فرد مَن يُبْغِضه، ويَحْقِره، ويناوئه، (ومُعادٍ يُعادِيه مِن مجتمَعِهِ الإنسيِّ والجِنِّيّ:

لَيْسَ يَخْلُو الْمَرْءُ مِنْ ضِدٍّ وَلَوْ   حَاوَلَ الْعُزْلَةَ فِي رَأْسِ الْجَبَلْ

وكان كلُّ فرد محتاجًا إلىٰ علاج هذا الداء الذي عمَّت به البَلْوىٰ)، يعني: داء العداوة (أوضح تعالىٰ علاجَهُ في ثلاثة مواضعَ من كتابه، بيَّن فيها أن علاج مناوأة الإنسِيِّ هو: الإعراض عن إساءته، ومقابلتُها بالإحسان، وأن شيطان الجن لا علاجَ لدائه إلا الاستعاذةُ بالله من شرِّه).

دخل أبو ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ المسجدَ، ورسولُ الله جالسٌ، فقال النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، تَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْ شَرِّ شَيَاطِينِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ»، قُلْتُ: أَوَ لِلْإِنْسِ شَيَاطِينُ؟ قَالَ: «نَعَمْ»[1]، فالأَبالِسَةُ تَحفَظُ منهم الاستعاذةُ، فإذا استعاذَ العبدُ من شرِّهم، فإن الله تعالى يُعيذُه، ولكنَّ الإنس لا تُفيدُ فيهم الاستعاذة، لو قلت له: «أعوذُ بالله من شَرِّكَ، أعاذني الله من أذاك»، لم يَنْتَهِ؛ بل يَكِيدُ لك.

فلذلك أمَرَ الله تعالى بعلاج عدوِّ الإنس وعدوِّ الجن في ثلاثة مواضع:

الموضع الأول:

في سورة الأعراف، قوله تعالى في العدو الإنسي: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، العفوُ: الصَّفْحُ، والعُرْفُ: المعروف، والجاهلُ، أي: بمثل هذه الأمور، أخَذَ ذلك بعض الشعراء[2] فقال:

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢٢٢٨٨)، والنسائي، كتاب الاستعاذة، باب: الاستعاذة من شر شياطين الإنس، حديث رقم (٥٥٠٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٢٩٨).
(٢) عزاه القيرواني في زهر الآداب (٢/ ٤٢٧) إلى أبي الفتح البُسْتي.

خُـذِ الْعَفْـوَ وَأْمُـرْ بِعُـرْفٍ كَمَـا ... أُمِـرْتَ وَأَعْـرِضْ عَـنِ الْجَاهِلِينْ

وَلِـنْ فِـي الْـكَلَامِ لِـكُلِّ الْأَنَـامِ ... فَمُسْتَحْسَنٌ مِنْ ذَوِي الجَاهِ لِينْ

فـذوو الجـاه الذيـن لهـم وَجَاهـة، مستحسَـنٌ منهـم اللِّيـن؛ **فهـذا حـال العـدوِّ الإنسـي، علاجـه: أن تعفُـوَ عنـه وأن تُعـرِضَ عـن جهلـه.**

وفي نظيـره مـن شـياطين الجـنِّ قـال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، نَـزْغُ الشـيطانِ: وَسْوَسَـتُهُ، فـإذا أَحْسَسْـتَ بِوَسْوَسَـةٍ مـن الشـيطان فادفعـه بالاسـتعاذة.

الموضع الثاني:

في سـورة المؤمنـون، قـال تعالـى في العـدوِّ الإنسـيِّ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، أي: ادفـع السـيئةَ بحسـنةٍ؛ فمَـنْ أسـاء إليـك، فأحسِـنْ إليـه، ومـن دعـا عليـك، فـادعُ لـه، ومـن حرَمَـكَ، فـلا تَحْرِمْـه، يعني: تُعْطِـي مَـنْ حرَمَـك، وتعفـو عمَّـن ظلَمَـك، وبذلـك تعـود الأُخُـوَّة.

ولمـا ذكَـرَ الإنسـيَّ، قـال في الجِنِّـيِّ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧-٩٨]؛ فـلا يدفعهـم إلا الاسـتعاذةُ مِنْ هَمَزاتهم ووَسَاوِسِـهِم: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾، أي: أسـألك أن تَعْصِمَنـي منهـم.

الموضع الثالث:

في سـورة فُصِّلَـتْ، وفيـه: زيـادةُ التصريـح بـأن ذلـك العـلاجَ السـماويَّ يقطـع ذلـك الـداءَ الشـيطانيَّ، وهـو قولـه: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]، وزاد فيـه أيضًـا: أن ذلـك العـلاج السـماويَّ لا يُعطـاهُ كلُّ النـاس؛ فـلا يعطـاه إلا صاحـبُ النصيـب الأوفـر، والحـظِّ الأكـبر:

فقال في الأول: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾، يعني: ادفع السيئةَ بالحسنة، وادفع الكلامَ القبيحَ بكلام لَيِّنٍ حَسَنٍ؛ فمتى فَعَلْتَ ذلك، انقلبت العداوةُ محبَّةً وصداقةً؛ فالعدوُّ الذي بينك وبينه عداوة إذا رآك تُحْسِنُ إليه، وتعفو عنه، فإنه يكون كالحميم، ولكنَّ هذه الخَصْلةَ لا تحصُلُ لكلِّ أحد، ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾، يعني: ما تحصُلُ إلا للذين صبروا، ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾؛ فمَنْ أعطيَ هذه الخَصْلة فإن حظَّه عظيم.

ثم قال في العدوِّ الشيطانيِّ مثلَ ما قال في الأعراف: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦]، أي: لا يَمْنَعُكَ إلا الاستعاذة.

وبيَّن في مواضعَ أخرى: أن ذلك الرِّفْقَ واللِّينَ لخصوص المسلمين دون الكافرين؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]؛ فمع المؤمنين يتذلَّلون؛ لأنهم إخوانهم، ولو كانوا عَجَمًا، أو بَرْبَرًا، أيًّا كانت جنسيَّاتهم.

ومثلها أيضًا في آخر سورة الفتح، قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]؛ فالشدة تكون على الكفر وأهله، أما المؤمنون، فإنهم يَرْحَمُ بعضُهم بعضًا.

وقال تعالى في سورة التوبة وفي سورة التحريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣، والتحريم: ٩]، أي: عامِلْهم بِغِلْظةٍ وشدَّة[1].

---

(١) قال الشيخ ابن جِبْرين رحمه الله في الإجابة عن أسئلة هذا الكتاب: (يمكن أن يقال: إن الكافر يعامل باللين لمصلحتَيْن:

الأولى: أن يجذبه ذلك إلى الإسلام؛ فلعلَّه إذا رأى تعامل المسلمين أن يُسْلِمَ ويدخُلَ في الإسلام.

الثانية: ألَّا ينفر من المسلمين، ويقول: إنهم أهل غلظة وأهل شدة ونحو ذلك.

ومع ذلك إذا رُئِيَ منه العداوة والشدة على المسلمين، فإنه يُشدَّدُ عليه على مقتضى هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]).

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فالشدَّةُ في محلِّ اللِّينِ: حُمْقٌ وخَرَقٌ، واللِّينُ في محلِّ الشدَّة: ضعفٌ وخَوَرٌ)، فالإنسان إذا شدَّد في محل اللين على المسلمين، فإنه ينفِّرُ من حوله، وإذا أَلَانَ القولَ لكل أحدٍ، دلَّ ذلك على ضعفه؛ وأصبحوا لا يحترمونه.

إِذَا قِيلَ: رِفْقًا قَالَ: لِلْحِلْمِ مَوْضِعٌ   وَحِلْمُ الْفَتَىٰ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ جَهْلُ

وهكذا يكون حالُ المسلمِ مع إخوانه.

المسألة السادسة

الاقتصاد



قال الشِّنْقِيْطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

[المسألة السادسة: التي هي مسألة الاقتصاد:

فقد أوضَحَ القرآنُ أصولَها التي تَرْجِعُ إليها جميعُ الفروع؛ وذلك أنَّ مسائلَ الاقتصاد راجعةٌ إلى أصلَيْن:

الأول: حُسْنُ النظر في اكتساب المال.

الثاني: حُسْنُ النظر في صَرْفه في مصارفه.

فانظُرْ كيف فتَحَ الله في كتابه الطُّرُقَ إلى اكتساب المال بالأسباب المناسبة للمروءة والدِّين، وأنار السبيل في ذلك؛ قال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقال: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]، وقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]، وقال: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، وقال: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وقال: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩]، إلى غير ذلك.

وانظُرْ كيف يأمُرُ بالاقتصاد في الصَّرْف: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]، ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

وانظُرْ كيف ينهى عن الصَّرْف فيما لا يَحِلُّ الصرفُ فيه: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦]].

الشَّرح

مسألةُ الاقتصاد تتعلَّق بالأموال من حيثُ الكسبُ والصرفُ؛ فالله تعالى بيَّن المكاسبَ الطيِّبةَ، ونهى عن الخبيثة، وأباح للإنسان أن يتكسَّب، وأن يبذُلَ كلَّ سبب يمكنه؛ لِيُغنِيَ نفسه، وليجمَعَ من المال ما يتعفَّفُ به؛ ذلك لأن الإنسانَ مضطرٌّ في هذه الحياة إلى مالٍ يتعفَّفُ به؛ مِن كُسْوةٍ له ولأهله، ولدٍ أو زوجة، وطعامٍ يتقوَّتُ به كلَّ يومٍ أكثر من مرَّة، وسكنٍ يسكُنُه، وما يتنقَّل عليه، وأمتعةٍ يتمتَّعُ بها في حياته، أيًّا كانت تلك الأمتعة.

ولما كان كذلك، أبيح للمسلم -بل أُمِرَ- أن يتكسَّب ويحصِّلَ الشيءَ الذي يكون به تعفُّفه، واستغناؤه عن غيره.

وقد أوضح الله في القرآن أصولَ الاقتصادِ التي تَرْجِعُ إليها جميعُ الفروع.

قال الشِّنْقِيْطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (مسائلُ الاقتصاد راجعةٌ إلىٰ أصلين:

الأول: حسنُ النظر في اكتساب الأموال.

الثاني: حسنُ النظر في صرفها في مصارفها).

أولًا: الاكتساب.

ثانيًا: الإنفاق.

فإذا وفَّق اللهُ العبدَ لاكتساب طيِّبٍ مُباحٍ بفعلِ الأسباب، فحصَلَ على المال، فإنه ينظر بعد ذلك في كيفية صرفه دون إفساده، أو إمساكه إمساكًا قويًّا.

قال: (فانظر كيف فتَحَ الله في كتابه الطُّرُقَ إلىٰ اكتساب المال بالأسباب المناسبة للمروءة والدِّين، وأنار السبيل في ذلك).

فالطرق التي شرَعَها وأباحها لاكتساب الأموال تكون بأسباب مباحة تناسِبُ المروءة، أي: الأخلاقَ الطيبة، وتناسِبُ الدِّينَ، وقد ذكَرَ اللهُ تعالى ذلك في سورة الجمعة، لمَّا نهى سبحانه عن البيع وقت الصلاة: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الجمعة: ٩]، أي: اتركوا البيعَ والتجارة؛ لأن هذا وقتُ عبادة، ثم قال بعد ذلك: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ ﴾، أي: انتهيتم من الصلاة، ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾، وهذا الأمرُ أمرُ إباحة، يعني: ليس واجبًا على كلٍّ من انتهى من الصلاة أن يذهبَ ويتكسَّب، إنما هو مباح، أي: كما مُنِعتُم من ذلك في وقت الصلاة، فإنه مباح لكم بعد وقت الصلاة، ومعنى: ﴿وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾، أي: تكسَّبوا، ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾، أي: لا يَشْغَلْكم التكسُّبُ والاهتمامُ بجمع المال عن الذِّكْر، بل انشغلوا بذكر الله تعالى، بأي نوع من أنواع الذكر؛ حتى يُعِينكم، ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

كذلك في سورة المزمِّل، قال الله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]، فقدَّم الذين يضربون، يعني: يمشون على الأرض مسافِرِينَ مِن جهة إلى جهة، يبتغون من فضل الله بالتجارة؛ يجلبون أو يستجلبون.

وكذلك قول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٨]؛ لمَّا ذكر الاشتغال بأمور الحج والمناسك، أباح التجارة في المناسك، أي: مباحٌ لكم وجائزٌ أن تتَّجِروا

فتجلبوا سِلَعًا في وقت الموسم تبيعونها؛ هذا يبيع من غنمه، وهذا يبيع من إنتاج صناعته، وهذا يبيع من تجارته، وكلٌّ ذلك: ﴿أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾، بالبيع ونحوه.

كذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾، يعني: لا يأكُل بعضُكم أموالَ بعضٍ، ﴿إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾[النساء: ٢٩]؛ فالتجارةُ إذا كانت عن تَرَاضٍ، فإنها مباحة.

كذلك قوله: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، لمَّا ذكر شُبهة اليهود وقولَهم: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥]، فرَّق بينهما، فقال: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥]، والبيعُ، يعني: التجارةَ؛ بأن يشتري سلعًا ثم يبيعها ليتَّجِرَ فيها، كما يفعله جماهيرُ الناس الذين يعملون بالتجارة.

كذلك أباح الغنائم؛ لمَّا غَنِموا غنائمَ بَدْرٍ، قال: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩].

وهذه الأدلة من القرآن، والأدلة من السنة كثيرة.

ولا بد أن تكون الأموال من كسب حلال؛ كما تدُلُّ عليه الأدلة الكثيرة.

أما الكسب الحرام: فإنه يؤدِّي بصاحبه إلى العذاب؛ ففي الحديث: «**كُلُّ لَحْمٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ، فَالنَّارُ أَوْلَىٰ بِهِ**»[1]، وهذه الأدلة تتعلَّق بالكسب وجمع المال بأي حيلة وبأي صورة.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند، حديث رقم (١٤٤٤١)، والترمذي، كتاب الجمعة، باب ما ذكر في فضل الصلاة، حديث رقم (٦١٤)، وابن حبان في صحيحه، حديث رقم (١٧٢٣)؛ من حديث كعب بن عُجْرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال الترمذي: (حديث حسن غريب).

قال المؤلف: (وانظُرْ كيف يأمُرُ بالاقتصاد في الصَّرْفِ).

أما بالنسبةِ للصرفِ: فمعلومٌ أن المرء يحتاج أن يَصْرِفَ من هذا المال ويُنفِقَ منه، ولكنْ لا بد أن يعرف: أن في ماله حقًّا؛ قال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩]؛ فيُخرِجُ هذا الحق: الزكاة وما أشبهها، وقد نهى الله تعالى عن البخل الشديد، وعن السرفِ في الإنفاق: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]، غلُّ اليد هو: الإمساك، يقالُ: فلانٌ كأنَّ يده مغلولةٌ، أي: لا ينفق، ولا يتصدَّق، ولو بدرهم، وهذا معنى قول اليهود: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾، يعني: أنه بخيلٌ -تعالى الله عن قولهم!- ولذلك أنكر عليهم بقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، أي: مبسوطتان يعطي وينفق كيف يشاء.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، ذكر أنها ثلاثةٌ: الإسراف، وهو: الإفساد، والقَتْرُ: الإمساك، والقَوَامُ: الوسَطُ، أي: النفقةُ بقَدْرِ الواجب، لا إسرافَ ولا بخلَ؛ بل وسطٌ بينهما، وكثيرٌ من الناس يغلب عليهم البخل؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠]، أي: شديدَ الإمساك بالطبع.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، أي: الزائدَ عن حاجاتكم؛ تنفقونه في وجوه الخير.

قال الشِّنْقِيْطِيُّ: (وانظُرْ كيف ينهىٰ عن الصَّرْفِ فيما لا يَحِلُّ الصرفُ فيه)؛ قال تعالى في صفة الكفار: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، يعني: في سبيل الشيطان؛ ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦]؛ هذه حالتهم.

والحاصلُ: أن الله إذا منَّ على الإنسان، ويسَّر له أسباب المال، فإن عليه أن ينفق على ولدِهِ وأهلِهِ النفقةَ المعتادةَ، وكذلك عليه ألَّا يَبْخَلَ، فيتصدَّقُ ويُعطِي مما أعطاه الله، ولكنْ يتجنَّبُ الإفسادَ؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء: ٥]، يعني: جعلها لِتَقُومَ بحاجاتكم، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٦-٢٧]، والتبذيرُ: صرفُ المال في المسائل المحرَّمة، وما أشبهها، كذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].



المسألة السابعة

السياسة



قال الشِّنْقِيْطِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[المسألة السابعة: التي هي السياسة:

فقد بيَّن القرآنُ أصولَها، وأنارَ مَعَالِمَها، وأوضَحَ طُرُقَها؛ وذلك أن السياسة -التي هي مصدر: «ساس يَسُوسُ»: إذا دبَّر الأمورَ، وأدار الشؤون- تنقسم إلى قسمين: خارجيَّةٍ، وداخليَّة.

أما الخارجيَّةُ: فمدارُها علىٰ أصلين:

أحدهما: إعدادُ القُوَّةِ الكافيةِ لقمعِ العدوِّ والقضاءِ عليه؛ وقد قال تعالى في هذا الأصل: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

الثاني: الوَحْدةُ الصحيحةُ الشاملةُ حول تلك القوة؛ وقد قال تعالى في ذلك: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وقد أوضَحَ القرآنُ ما يَتْبَعُ ذلك من الصُّلْحِ والهُدْنة، ونَبْذِ العهودِ إذا اقتضى الأمرُ ذلك؛ قال: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ [التوبة: ٤]، وقال: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٧]، وقال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ الآيةَ [الأنفال: ٥٨]، وقال: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ٣].

وأمَرَ بالحَذَرِ والتحرُّزِ من مكايدهم وانتهازِهِمُ الفُرَصَ؛ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ...﴾ الآيةَ [النساء: ٧١]، وقال: ﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ

وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ﴾ الآيةَ [النساء: ١٠٢]، ونحوَ ذلك من الآيات.

وأما السياسةُ الداخليَّةُ: فمسائلُها راجعةٌ إلى: نشرِ الأمنِ والطمأنينةِ داخلَ المجتمع، وكَفِّ المظالم، ورَدِّ الحقوق إلى أهلها.

والجواهرُ العظامُ التي عليها مَدارُ السياسة الداخلية ستة:

الأول: الدِّينُ؛ وقد جاء الشرع بالمحافظة عليه؛ ولذا قال ﷺ: «**مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ، فَاقْتُلُوهُ**»(١)، وفي ذلك رَدْعٌ بالغٌ عن تبديل الدِّينِ وإضاعته.

الثاني: الأَنْفُسُ؛ وقد شرَعَ اللهُ في القرآنِ القِصَاصَ محافظةً عليها: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ الآيةَ [البقرة: ١٧٩]، ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى﴾ الآية [البقرة: ١٧٨]، ﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ الآية [الإسراء: ٣٣].

الثالث: العقولُ؛ وقد جاء القرآن بالمحافظة عليها؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

وفي الحديث: «**كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ**»(٢)، «**مَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ**»(٣)؛ ولأجل المحافظة على العقول وجَبَ الحدُّ على شارب الخمر.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب حكم المرتد والمرتدة، حديث رقم (٦٩٢٢)؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع، حديث رقم (٤٣٤٣)، ومسلم، كتاب الأشربة، باب النهي عن الانتباذ في المزفَّت والدُّبَّاء والحَنْتَم والنَّقِير، حديث رقم (١٩٩٩)؛ من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد في المسند، حديث رقم (١٤٧٥٩)، وأبو داود، كتاب الأشربة، باب النهي عن المسكر، حديث رقم (٣٦٨١)، والترمذي، كتاب الأشربة، باب ما جاء: ما أسكر كثيره فقليله حرام، حديث رقم (١٨٦٥)، وابن ماجه، كتاب الأشربة، باب ما أسكر كثيره فقليله حرام، حديث رقم (٣٣٩٣)؛ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال الترمذي: «حسن غريب».

الرابع: الأنساب؛ وللمحافظة عليها شرَعَ الله حدَّ الزِّنى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ الآية [النور: ٢].

الخامس: الأعراض؛ ولأجل المحافظة عليها شرَعَ الله جَلْدَ القاذفِ ثمانين: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ الآيةَ [النور: ٤].

السادس: الأموال؛ ولأجل المحافظة عليها شرَعَ الله قَطْعَ يدِ السارق: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ [المائدة: ٣٨].

فتبيَّن أنه من الواضحِ أنَّ اتِّباعَ القرآنِ كفيلٌ للمجتمَعِ بجميعِ مصالحِهِ الداخليَّةِ والخارجيَّة].

الشَّرح

هذه المسألةُ تتعلَّقُ بالسياسة، وهي: ضبطُ البلاد، وحصولُ الأمن والرخاءِ فيها، وانقطاعُ العداوةِ والشحناء، وانقطاعُ المخاوفِ والمحاذير، وما أشبه ذلك.

ولا شكَّ أن الناس يُحِبُّونَ أن يعيشوا بطمأنينة، ويصعُبُ عليهم أن يَرَوْا ما يكدِّرُ حياتَهم، فإذا كان هناك نَهْبٌ وسَلْبٌ، وقتلٌ وغصبٌ، وفواحشُ ونحو ذلك، تكدَّرت الحياة الدنيا، ولم يطمئِنَّ الناس إلى ما هم فيه، كل منهم يخاف على نفسه، أو على أولاده، أو على ماله، أو على أهله؛ فهو دائمًا خائفٌ، حَذِرٌ، غير مطمئن.

جاءت الشريعة بتدبير الحياة مع الدول الخارجية الكافرة، وتدبيرها مع أهل الإيمان وأهل البلاد المسلمة، وبامتثال ذلك يأمنون كلُّهم في حياتهم، ويَسْلَمُونَ مما يكدِّر عليهم حياتَهم ومعيشتَهم.

هذا معنى السياسة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بيّن القرآنُ أصولَها)، يعني: أصولَ السياسة، (وأنار مَعَالِمَها)، أي: أوضَحَها حتى كأنَّها في ضوء واضح، (وأوضَحَ طُرُقَها)، التي تُسْلَكُ.

وقد ذكَرَ أن السياسة (مصدَرُ: ساسَ يَسُوسُ)[1]؛ يقال: ساس الناسَ يَسُوسُهم: (إذا دبَّر الأمورَ، وأدار الشؤون)، وهي السياسة السليمة الواضحة، ويتعلَّق ذلك بولاة الأمورِ أصلًا؛ فهم الذين لهم التدخُّلُ في سياسة الحياة بما يتعلَّق مع الدول الأخرى، وما يتعلَّق بالدولة الإسلامية.

قال المؤلف: (وتنقسم -أي: السياسة- إلىٰ قسمين: خارجيَّة، وداخليَّة):

فالخارجية: هي التعامُلُ مع الدول الأخرى الكافرة، والمخالفة؛ فقديمًا لم يكن هناك إلا دولةٌ مسلِمةٌ موحَّدة، يجتمعون على خليفة، أو أمير واحد، ولو كانوا أكثر من نصف الأرض، وهؤلاء: أهل الداخلة، ومن خالفهم من الكفار يُسَمَّوْنَ: الخارجة.

لكنْ في هذه الأزمنة أصبح المسلمون دُوَلًا، كُلُّ دولةٍ تَدَّعِي الاستقلالَ والانحيازَ عن غيرها، لا تدبِّرُ إلا ما اسْتَوْلَتْ عليه، والدولُ الأخرى كلٌّ منها مستقلٌّ بنفسه، كما هو الواقع؛ فدولةُ المملكة تديرها إدارة واحدة، ودولة العراق كذلك، ودولة اليمن، ودول الشام، ودولة مصر، وكذا الدول في الخليج، وكذا الدول الأخرى في الباكستان والأفغان وما أشبهها، كُلٌّ منها دولة إسلامية، ومع ذلك لا يَقْدِرُ غيرهم أن يدبِّر أمرهم؛ بل كل دولة تدبِّر أمر نفسها، سواء التدبير الداخلي أو التدبير الخارجي.

---

(١) ينظر: لسان العرب، مادة: (س و س).

وقد جاءت الشريعة بالتدبير الخارجي والداخلي.

قال الشِّنْقِيْطِيُّ: (أما الخارجيةُ: فمدارها علىٰ أصلين:

أحدهما: إعداد القوة الكافية لقمع العدوِّ والقضاء عليه)؛ وهذا مما تحتاج إليه الدول؛ وذلك لأن الأعداء الذين يخالفونهم يكيدون لهم بما يَقْدِرونَ عليه، فلا بُدَّ أن يُعِدُّوا ما يقمعُ العدوَّ، ويقضِي عليه، ويطرُدُه، ويمنعه من التدخُّل في البلاد الإسلامية؛ ودليل ذلك هذه الآية: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

إذا أعدَّ المسلمون قوةً كافيةً من الأسلحة والرجال والمال، ومما يحتاجون إليه في القتال، فإنهم يُرهِبونَ بذلك عدوَّهم، وإذا عَلِمَ العدوُّ الذي يتربَّصُ بهم، فإنه يخافهم، فمعنى الإرهاب: تخويف الأعداءِ من أن يبطشوا بالمسلمين، أو يمُدُّوا إليهم أيديهم.

(الثاني: الوَحْدةُ الصحيحةُ الشاملةُ حول تلك القوة)، أي: يكون المسلمون قوةً واحدةً، وأمةً واحدةً؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢]، فتتوحَّد الأمةُ ولا تختلف، ولا يكون بينهم شيء من المقاطعات، ولا المخالفات؛ لأنهم إذا تفرَّقوا طَمِعَ فيهم العدو؛ فهذه هي الوَحْدةُ الصحيحةُ الشاملةُ حول تلك القوة؛ ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، تمسَّكُوا كلُّكم جميعًا بحبل الله، أي: دينه، ولا تفرَّقوا، وفي الآية التي بعدها: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

كذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، إذا كان بينكم نزاعٌ، فالأصل أن العدوَّ يطمع فيكم، وإذا طَمِعَ فيكم، فإنكم لا تقدرون على مقابلته؛ فلا تَنَازَعُوا فيما بينكم.

وقد أوضح القرآن بعد ذلك ما يتعلَّق بالأعداء، فبيَّن أن الصُّلْحَ خير، يعني: أن تصطلحوا معهم حتى تأمنوهم ويأمنوكم، وكذلك الهدنة، وهي الصلح على ترك القتال.

والكُفَّارُ ثلاثُ فِرَقٍ:

أولًا: من دخَلَ بأمان، ولو كان من العدو، فإنه آمِنٌ.

ثانيًا: من أعطى الجِزْية، والتزم بالصغار، فإنه آمن.

ثالثًا: الذين عاهدوا، فإنهم آمنون؛ لذلك قال الله تعالى: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ [التوبة: ٤]، والمُدَّةُ قد تحدَّدُ بسنةٍ أو عشر سنين مثلًا، وقد لا تحدَّد؛ بل تكون مطلقة إلى أن يحصُلَ منهم نقضٌ؛ قال تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَقَـٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٧]، أي: لا تبدؤوا أنتم بنقض العهد.

أما إذا كانوا معاهدين، وخِفْتُمْ أو رأيتم أماراتِ النقض والخيانة، فابدؤوا بإخبارهم: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾، أي: غدرًا، ﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨]، أي: أخبرهم أنْ لا عَهْدَ بيننا وبينكم، بل بيننا وبينكم الحرب؛ فقد ظهر منكم ما يدُلُّ على أنكم سوف تنقضون العهد، فنحن برئنا منكم؛ قال تعالى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ٣]، وكان هذا الأذان في سنة تسع عندما

أرسل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا بكرٍ ومن معه ليُعْلِنوا البراءة من المشركين[١].

قال: (**وأَمَرَ بالحَذَرِ والتحرُّزِ من مكايدهم وانتهازِهِمُ الفُرَصَ**)؛ لأنهم قد يهتبلون[٢] غَفْلة المسلمين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١]، أي: كونوا حذرين من أعدائكم؛ لا يفتكون بكم.

وكذلك في صلاة الخوف قال: ﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]؛ حتى ولو كانوا في الصلاة، ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [النساء: ١٠٢]؛ فخذوا حِذْرَكم، وخذوا معكم أسلحتكم، تدفعون بها عَدُوَّكم إن هجَمَ عليكم وأنتم في الصلاة.

قال المؤلِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وأمَّا السياسةُ الداخليَّة**)، في البلاد بين المسلمين، (**فمسائلُها راجعةٌ إلىٰ: نشرِ الأمنِ والطمأنينةِ داخلَ المجتمع، وكَفِّ المظالم، وردِّ الحقوقِ إلىٰ أهلها**)، فبذلك تكون البلادُ آمنةً.

قال: (**والجواهرُ العظامُ التي عليها مَدارُ السياسة الداخلية ستة**)، وقد أجملها، ولو توسَّع فيها، لاحتمَلَتْ مجلَّدًا.

الأول: حفظُ الدِّين:

يعني: دين المسلمين؛ فإنه أولى بأن يكون له حُمَاةٌ يحمونه،

(١) يشير الشيخ إلى حديث أبي هريرة، وفيه: «أن أبا هريرة قال: بعثني أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في تلك الحجة في المؤذِّنين، بعثهم يوم النحر يؤذِّنون بمنى: ألَّا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان»؛ أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾، حديث رقم (٤٦٥٦)، ومسلم، كتاب الحج، باب لا يحج البيت مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، وبيان يوم الحج الأكبر، حديث رقم (١٣٤٧).

(٢) الاهتبال: الاغتنام والاحتيال والاقتصاص. ينظر: لسان العرب، مادة: (هـ ب ل).

(وقد جاء الشرع بالمحافظة عليه؛ ولذا قال ﷺ: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»)، أي: من ارتدَّ وكفَرَ، فحدُّه القتل، (وفي ذلك رَدْعٌ بالغٌ عن تبديلِ الدِّينِ وإضاعته)، ويكون ذلك زاجرًا للجميع؛ لأن من عرَفَ أن فلانًا قتل لأنه ارتدَّ، انزجر.

الثاني: حفظ الأنفس:

(وقد شرَعَ اللهُ في القرآنِ القِصَاصَ محافظةً عليها)، أي: على الأنفس؛ فنفوسُ المسلمين لها مكانتها، كلٌّ تَعِزُّ عليه نفسه؛ فلذلك لا بد أن يكونوا آمنين على أنفسهم؛ فشرَعَ الله تعالى القصاص: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى﴾ [البقرة: ١٧٨]. والقصاص هو: أن يُقتَلَ القاتل، والحكمةُ في ذلك: رَدْعُهم عن التهاون بدماء المسلمين؛ ولذلك قال: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

وأهل القوانين الوضعية أضاعوا هذا الأمر، وقالوا: إذا قُتِلَ من شعبنا واحد، فكيف نقتل القاتل، بدَلَ ما نقَصَ شعبنا واحدًا، ننقصه اثنين؟! فأبطلوا القصاص.

ويُرَدُّ عليهم: بأن القصاص فيه أعظم رادع عن القتل، وهو: أن الإنسان إذا هَمَّ بقتلٍ، تذكَّر وفكَّر، وقال: ماذا أستفيدُ من قتله؟! إذا قتلته، فسوف أُقتَلُ، وتضيع حياتي؛ فينزجرُ بذلك ويترك القتل؛ قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى﴾ [البقرة: ١٧٨]، يعني: في قتلاكم: أنَّ من قَتَلَ قُتِلَ؛ حتى تأمن النفوس ولا يعتديَ أحدٌ على أحدٍ؛ ولذلك قال: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا﴾ [الإسراء: ٣٣]، إذا قُتِلَ مظلومًا، فأنت أيُّها الوليُّ لك سلطان أن تقتُلَ القاتل، ولكن لا تقتل غيره؛ ﴿فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِ﴾.

الثالث: حفظُ العقول:

المحافظة على العقول أمرٌ مهم في الإسلام؛ وذلك لأن الإنسان لا يكون إنسانًا إلا بالعَقْل، فإذا فقَدَه فقَدَ إنسانيتَهُ، وأصبح أقلَّ حالًا من البهائم، فجاء القرآن بالمحافظة على العقول، وأعظم ما يُخِلُّ بالعقول: شُرْبُ الخمور؛ فلذلك حرَّمها الله؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

ويستفاد من هذه الآية ما يلي:

- **أولًا**: ذكَرَ أن الخمرَ شبيهةٌ بالأنصاب، وهي: الأصنامُ المعبودة؛ وهذا دليل على أنها محرَّمة.
- **ثانيًا**: وصفَهَا بأنها رِجْسٌ، والرجسُ: النجس.
- **ثالثًا**: أضافها إلى الشيطان، والشيطانُ لا يأتي إلا بما يُفسِدُ الإنسانَ.
- **رابعًا**: أمَرَ بالاجتناب، ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾، يعني: ابتعدوا عنه.
- **خامسًا**: رتَّب الفلاحَ على ذلك الاجتناب.

وجاء في الحديث: «**كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ**»، وفي رواية: «**كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ، وَكُلُّ خَمْرٍ حَرَامٌ**»، وقال: «**مَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ، فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ**».

قال: (**ولأجلِ المحافظةِ على العقول: وجَبَ الحدُّ على شارب الخمر**)؛ محافظةً على عقله وعلى غيره، وحدُّه: الجلدُ، وإذا تكرَّر ذلك منه، فحدُّه: القتل؛ كما في حديثٍ صحيحٍ رواه أحدَ عشَرَ صحابيًّا: أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِذَا شَرِبَ الرَّجُلُ فَاجْلِدُوهُ، ثُمَّ إِذَا شَرِبَ فَاجْلِدُوهُ، ثُمَّ**

إِذَا شَرِبَ فَاجْلِدُوهُ»؛ أَرْبَعَ مِرَارٍ، أَوْ خَمْسَ مِرَارٍ، «ثُمَّ إِذَا شَرِبَ فَاقْتُلُوهُ»[1].

الرابع من أمور الأمن: حفظُ الأنساب:

فالإنسانُ يحفظُ نَسَبَهُ، وأولاده، وللمحافظة عليها حرَّم الله الزِّنى، وشرَعَ له الحدَّ، فإذا كان بِكْرًا، يُجْلَدُ مائةَ جلدة: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾، يعني: البِكْرَ، ﴿فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢]، يعني: لا ترفُقُوا بهما؛ بل شدِّدُوا عليهما الجلدَ، ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]، إلى آخر الآيات.

وجاءت السُّنَّةُ بأنه يُرجَمُ إذا كان قد تزَوج زواجًا صحيحًا[2].

الخامس: حفظُ الأعراض:

فالإنسانُ يَغَارُ على عرضه إذا انتُهِكَ، ومن ذلك: إذا رماه بفاحشة، فقال: هذا قد زَنَى، هذا من أهل الزنى، ونحو ذلك؛ ولذلك فقد حافَظَ الله تعالى على ذلك، وشرَعَ حَدَّ القذفِ، فمَنْ رمى مسلمًا بفاحشة، فإنه يجلد ثمانين جلدة؛ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ

---

(١) أخرجه أحمد في المسند، حديث رقم (٦١٩٧)، وأبو داود، كتاب الحدود، باب إذا تتابع في شرب الخمر، حديث رقم (٤٤٨٤)، والترمذي، كتاب الحدود، باب ما جاء: مَنْ شَرِبَ الخمر فاجلدوه، ومن عاد في الرابعة فاقتلوه، حديث رقم (١٤٤٤)، والنسائي، كتاب الأشربة، باب ذكر الروايات المغلَّظات في شرب الخمر، حديث رقم (٥٦٦١)؛ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وينظر: تأويل مختلف الحديث (ص١٥٨)، ونصب الراية (٣/ ٣٤٦)، وفتح الباري (١٢/ ٧٩)، ونيل الأوطار (٧/ ١٤٧).

(٢) يشير الشيخ إلى حديث جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما: «أنَّ رجلًا مِن أَسْلَمَ أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدَّثه أنه قد زنى، فشهد على نفسه أربع شهادات، فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فرُجِمَ، وكان قد أحصَنَ»؛ أخرجه البخاري، كتاب الحدود، باب رجم المحصن، حديث رقم (٦٨١٤).

ﮋﺛﻤَٰﻨِﻴﻦَ ﺟَﻠۡﺪَةٗ وَلَا ﺗَﻘۡﺒَﻠُﻮاْ ﻟَﻬُﻢۡ ﺷَﻬَٰﺪَةً أَﺑَﺪٗاۚ وَأُوْﻟَٰٓﺌِﻚَ ﻫُﻢُ ٱﻟۡﻔَٰﺴِﻘُﻮنَ ٤ إِﻟَّﺎ ٱﻟَّﺬِﻳﻦَ ﺗَﺎﺑُﻮاْﮊ [النور: ٤-٥]؛ فهذا لأجلِ المحافظة على الأعراض.

السادس: المحافظة على الأموال:

(ولأجل المحافظة عليها شرَعَ الله قطعَ يدِ السارق)، في هذه الآية: ﮋوَٱﻟﺴَّﺎرِقُ وَٱﻟﺴَّﺎرِﻗَﺔُ ﻓَﭑﻗۡﻄَﻌُﻮٓاْ أَﻳۡﺪِﻳَﻬُﻤَﺎ ﺟَﺰَآءَۢ ﺑِﻤَﺎ ﻛَﺴَﺒَﺎ ﻧَﻜَٰﻠٗﺎ ﻣِّﻦَ ٱﻟﻠَّﻪِﮊ [المائدة: ٣٨]؛ فتُقطعُ يدُهُ اليمنى، واليدُ اليمنى دِيَتُها: خمسون ألفًا -في زماننا هذا- ومع ذلك إذا سرَقَ مائة ريالٍ أو خمسين فقطْ، قُطِعَتْ يده.

فهكذا جاءت الشريعة بالسياسة الداخلية والخارجية؛ فتبيَّن أن القرآن كفيلٌ للمجتمَعِ بجميع مصالحِهِ الداخليَّةِ والخارجيَّة.



المسألة الثامنة

تسليطُ الكفَّار على المسلمين

قال الشِّنْقِيْطِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[المسألة الثامنة: التي هي تسليط الكفار علىٰ المسلمين:

فقد استشكَلَها أصحابُ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو موجودٌ بين أظْهُرِهم، وأفتى الله جَلَّ وَعَلَا فيها بنفسه في كتابه فتوى سماويَّةً، أزال بها ذلك الإشكال؛ وذلك أنه لمَّا وقع بالمسلمين ما وقَعَ يوم أُحُدٍ، استشكلوا ذلك، فقالوا: كيف يُدالُ منَّا المشركون ويُسلَّطونَ علينا، ونحن على الحق، وهم على الباطل؟! فأفتاهم الله في ذلك بقوله: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وقولُهُ: ﴿قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾، أوضحه على التحقيق بقوله: ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

فبيَّن في هذه الفتوى السماويَّةِ: أن سببَ تسليطِ الكفَّار عليهم جاءهم من قِبَلِ أنفسهم، وأنه هو فَشَلُهم، وتنازُعُهم في الأمر، وعصيانُ بعضِهم الرسولَ، ورغبتُهم في الدنيا؛ وذلك أن الرُّماةَ الذين كانوا بسَفْحِ الجَبَلِ يمنعون الكفَّار أن يأتوا المسلمين من جهة ظهورهم، طَمِعُوا في الغنيمةِ عند هزيمة المشركين في أوَّلِ الأمر؛ فتركوا أمرَ الرسولِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأجل رغبتهم في عَرَضٍ من الدنيا ينالونه].

الشَّرح

يستشكل بعضهم: كيف يتسلَّطُ الكفَّارُ علينا ونحن على الإسلام؟! تسلَّطوا على الدولة الفلانية، وقتلوا فيها قتلًا كبيرًا، تسلَّطوا على العراق،

وفعلوا فيه هذه الأفاعيل، وتسلَّطوا على الأفغان، وحصَلَ منهم ما حصَلَ من الآلام والمصائب، وما أشبه ذلك، وتسلَّطوا على اليمن، والصومال، وغيرها، كيف يتسلَّطون ويتغلَّبون وهم على الباطل، والمسلمون على الحق؟! لا بد أن يكون هناك سَبَبٌ.

وأول ما حصل ذلك: أن المسلمين في غَزْوةِ أُحُدٍ حصل منهم شيء من الفشل؛ فتسلَّط العدوُّ عليهم، وقتَلَ منهم سبعين قتيلًا، مع أنهم قد قتلوا من المشركين نحو ثُلُثِ ذلك، فقد قتلوا نحو اثنين وعشرين من المشركين، ولكنْ كأن الغلَبةَ كانت للكفار، فاستشكَلَ المسلمون ذلك! أي: تساءلوا؛ كيف تكون الغلبة للكفار ونحن على الحق؟!

فأجابهم الله تعالى في كتابه بفتوى سماويَّة، أزال بها هذا الإشكال، وهي: أن ما أصاب المسلمين يوم أُحُدٍ إنما جاءهم من قِبَلِ أنفسهم.

وقد بيَّن سبحانه تفصيلَ ذلك -تسليط الأعداء بسببكم- في موضع آخَرَ قبلَها بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]؛ ففي غزوةِ أُحُدٍ كان عدَدُ المسلمين أقلَّ من ثلثِ عدد الكفار؛ المسلمون: سبعمائة، والكفار: ثلاثة آلاف، فهزموهم في أول الأمر، وأوقعوا بهم وَقْعة، وهذا معنى: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾، ثم حصَلَ معهم الفشل: ﴿فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾، في أمر الرسول ﷺ، ﴿وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾، من النصرِ ومقدِّماته، ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾.

وقد بيَّن ذلك الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: (في هذه الفتوى السماويَّةِ: أن سببَ تسليطِ الكفَّار عليهم جاءهم من قِبَلِ أنفسهم، وأنه هو فَشَلُهم، وتنازُعهم في الأمر، وعصيانُ بعضِهم الرسولَ، ورغبتُهم في الدنيا؛ وذلك أن الرُّمَاةَ -الذين كانوا بسَفْحِ الجَبَلِ يمنعون الكفار أن يأتوا المسلمين من جهة ظهورهم- طَمِعُوا في الغنيمةِ عند هزيمة الكفار في أوَّل الأمر؛ فتركوا أمرَ الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأجلِ رغبتهم في عَرَضٍ من الدنيا ينالونه).

لما رتَّبهم النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جعَلَ الرُّمَاةَ خلفَهم، وقال: «إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ، فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ»، ولكنْ بعدما بدأ القتال، وانهزم المشركون في أول الأمر، قال أكثر الرُّمَاةِ: (الغنيمةَ، أي قَوْمِ، الغنيمةَ، ظَهَرَ أصحابُكم؛ فما تنتظرون؟!)، وكأنهم ما سمعوا مقالة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه إنما قال ذلك لكبيرهم عبدِ الله بن جُبَيْرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ فعند ذلك تركوا حمايةَ ظهور المسلمين، فجاءهم المشركون بالخيول ومعهم مائتا فارس من الخلف، فقتلوا من وجَدُوا من الرماة، ثم قاتلوا المسلمين من خلفهم[1]؛ كان هذا هو السبب.

فنحن نقول: كذلك ما يحصُلُ للمسلمين من تسلُّطِ الأعداء عليهم بسببِ تقصيرٍ منهم.

ولمَّا تسلَّط المشركون النصارى على المسلمين في دولة الأندلس -وهي أسبانيا والبرتغال حاليًّا- تعجَّب المسلمون: كيف تسلَّطوا عليهم وقتلوا منهم مَقْتَلَةً شنيعة؟!

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب...، حديث رقم (٣٠٣٩)؛ من حديث البراء بن عازب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وينظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٤٧)، ودلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٢٢٩).

والقصة طويلة[١]، فتبيَّن: أنهم جاؤوهم من قِبَل أنفسهم؛ لأنهم غيَّروا شرع الله، فسلَّط الله عليهم أعداءهم؛ جاء في بعض الآثار أن الله يقول: «إِذَا عَصَانِي مَنْ يَعْرِفُنِي، سَلَّطْتُ عَلَيْهِ مَنْ لَا يَعْرِفُنِي»[٢]، وهذا الذي حصل.

وكذلك الذين تسلَّطوا على المسلمين في أول عهد الدولة السعودية، قالوا: سبَبُ ذلك أن كثيرًا من أهل الدِّرْعِيَّةِ وما حولها كانوا قد تخالفوا فيما بينهم، فجاءهم العدو (الباشا)، وهو يَدَّعِي الإسلامَ، وقاتل كلَّ من وجده، وصبَّ جام غضبِهِ على أصل الدولة في الدِّرْعيَّة؛ فسبَبُ تسليطِهِ: هو ما حصل من التفرُّق وعدم جمع الكلمة فيما بينهم.

وكلُّ هذا دليل على أن الله تعالى إنما يسلِّطُ المشركين بذنوب يقترفُها المسلمون، ونقولُ أيضًا في تسلُّطهم على العراق: (لا بد أن هناك مخالفاتٍ وذنوبًا كثيرة)، وكذلك تسلُّطهم على الصومال، وما أشبه ذلك.

---

(١) ينظر: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (٤/ ١٠٦)، ودولة الموحدين (ص ٢٣٨).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات، برقم (٣٣)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٨/ ٩١)، عن الفُضَيْل بنِ عيَاض.

المسألة التاسعة

ضعف المسلمين، وقِلَّةُ عَدَدِهم وعُدَدِهم بالنسبة إلى الكفار

قال الشِّنْقِيْطِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[المسألة التاسعة: التي هي ضعفُ المسلمين، وقِلَّةُ عَدَدِهم وعُدَدِهم بالنسبة إلىٰ الكفار:

فقد أوضح الله جَلَّ وَعَلَا علاجَها في كتابه؛ فبيَّن أنه إنْ عَلِمَ من قلوب عباده الإخلاصَ كما ينبغي، كان من نتائج ذلك الإخلاصِ: أن يَقْهَروا ويَغْلِبوا مَنْ هو أقوى منهم؛ ولذا لمَّا عَلِمَ جَلَّ وَعَلَا من أهل بيعة الرضوان الإخلاصَ كما ينبغي، ونَوَّهَ بإخلاصهم في قوله: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١٨]، بيَّن أن من نتائج ذلك الإخلاصِ: أنه تعالى يَجْعَلُهم قادرين على ما لم يقدروا عليه، قال: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ [الفتح: ٢١]؛ فصرَّح بأنهم غير قادرين عليها، وأنه أحاط بها، فأقدَرَهم عليها، وجعلها غنيمةً لهم؛ لِمَا عَلِمَ من إخلاصهم.

ولذلك لمَّا ضرب الكفارُ على المسلمين في غزوة الأحزابِ ذلك الحصارَ العسكريَّ العظيمَ -المذكورَ في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠-١١]- كان علاجُ هذا الضعفِ والحصارِ العسكريِّ: الإخلاصَ لله، وقوةَ الإيمان به؛ قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

فكان من نتائج ذلك الإخلاصِ ما ذكره الله بقوله: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ

ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٥-٢٧].

وهذا الذي نصَرَهم اللهُ به ما كانوا يظنُّونه، وهو الملائكةُ والرِّيحُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ الآيةَ [الأحزاب: ٩].

ولأجل هذا كان من الأدلَّة على صحة دين الإسلام: أن الطائفةَ القليلةَ الضعيفةَ المتمسِّكةَ به تَغْلِبُ الكثيرةَ القويَّةَ الكافرةَ: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، ولذلك سَمَّى تعالى يومَ بَدْرٍ: آيةً، وبيِّنةً، وفرقانًا؛ لدلالته على صحة دين الإسلام؛ قال: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ الآيةَ [آل عمران: ١٣]، وذلك يوم بدر، وقال تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ الآيةَ [الأنفال: ٤١]، وذلك يوم بدر، وقال: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ الآيةَ [الأنفال: ٤٢]، وذلك يوم بدر؛ على ما حقَّقه بعضهم.

ولا شكَّ أن غلبةَ الفئةِ القليلةِ الضعيفةِ المؤمنةِ للكثيرة القويَّةِ الكافرةِ، دليلٌ على أنَّها على الحق، وأنَّ الله هو الذي نصرَها؛ كما قال في وقعة بدر: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، وقال: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ الآيةَ [الأنفال: ١٢].

والمؤمنون: الذين وعَدَهم الله بالنصر، وبيَّن الله تعالى صفاتِهم، وميَّزهم بها عن غيرهم، قال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، ثم ميَّزهم عن غيرهم بصفاتِهم في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى

ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

وهذا العلاجُ الذي أشرنا إليه أنه علاجٌ للحصارِ العسكريِّ، أشار تعالى في سورة المنافقين إلى أنه -أيضًا- علاجٌ للحصارِ الاقتصاديِّ؛ وذلك في قوله: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾ [المنافقون: ٧]، وهذا الذي أراد المنافقون أن يفعلوه بالمسلمين، هو عَيْنُ الحصارِ الاقتصاديِّ.

وقد أشار تعالى إلى أن علاجَهُ: قوةُ الإيمان به، وصدقُ التوجُّهِ إليه جَلَّ وَعَلَا بقوله: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧]؛ لأنَّ مَنْ بيده خزائنُ السموات والأرض لا يُضِيعُ ملتجئًا إليه، مطيعًا له: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، وبيَّن ذلك أيضًا بقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ [التوبة: ٢٨]].

الشَّرح

هذه المسألة التاسعة، وهي: ضَعْفُ المسلمين، وقِلَّةُ عَدَدِهم، وقِلَّةُ عُدَدِهم، بالنسبة إلى الكفار قديمًا وحديثًا، فإذا نظرنا الآن إلى الدول الكافرة، وجدناهم أعدادًا هائلة، وهم على الكفر، ولهم نشاط في الدعوة إلى ما هم عليه، يُرسِلُونَ الدعاةَ إلى الجهاتِ البعيدةِ لِيُضِلُّوا من يجدونه جاهلًا، ويُوقِعوه فيما هم عليه، وقد تمكَّنوا في البلاد الإسلامية، فكَثُرُوا في مصر، وسوريا، ولبنان، واليمن، وفلسطين، وغير ذلك.

ولا شكَّ أن هذا بسبب ضعفِ المسلمين في تمسُّكِهم بدينهم؛ فالمسلمون متى راجعوا دينَهم مراجعةً سليمةً صحيحةً نصَرَهم الله، ولو كَثُرَتْ أعدادُ العدوِّ، ولو كانوا أضعاف أضعافهم، أما إذا تخاذلوا فيما بينهم، وتكاسلوا، وغلَبَ عليهم الجبنُ والضَّعْفُ والخوفُ، وتركوا الأعداء يسومون إخوانهم سوء العذاب، فإنهم يتسلَّطون عليهم، ويصل إليهم ما وصَلَ إلى غيرهم.

وقد أوضح الله عَزَّوَجَلَّ علاجَ قِلَّةِ المسلمين وضَعْفِهم، فبيَّن أنه متى عَلِمَ من قلوب عباده الإخلاصَ، كان من نتائج ذلك الإخلاصِ أن يقهروا ويغلبوا من هو أقوى منهم، فإذا عَلِمَ ما في قلوبهم من الإخلاص الصحيح، أمدَّهم بقوة ولو كانوا قليلين.

ولمَّا عَلِمَ من أهل بيعة الرضوان الإخلاصَ، وعَدَهم خيرًا في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ [الفتح: ١٨-١٩]، ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ [الفتح: ٢٠].

ولمَّا نزلت هذه السورة، قال بعض الصحابة: هل هذا فتح؟ -يعنون هذا الصلح- فقال: «نَعَمْ»، أي: إنه فتح[1]؛ فبيَّن الله أن من نتائج

(١) أخرج البخاري في كتاب الجزية، بابٌ، حديث رقم (٣١٨٢) بسنده إلى أبي وائل، قال: كنا بصِفِّينَ، فقام سهل بن حُنَيْف فقال: أيها الناس، اتهموا أنفسكم؛ فإنا كنا مع رسول الله صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يوم الحديبية، ولو نرى قتالًا لقاتلنا، فجاء عمر بن الخطاب، فقال: يا رسول الله، ألسنا على الحق، وهم على الباطل؟ فقال: «بَلَىٰ»، فقال: أليس قتلانا في الجنة، وقتلاهم في النار؟ قال: «بَلَىٰ»، قال: فعلام نعطي الدنيَّة في ديننا، أنرجع ولما يحكُم الله بيننا وبينهم؟ فقال: «يا ابن الخطَّاب، إني رسولُ الله، ولن يضيِّعني الله أبدًا»، فانطلق عمر إلى أبي بكر، فقال له مِثْلَ ما قال للنبي صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقال: إنه رسولُ الله، ولن يضيِّعه الله أبدًا، فنزَلَتْ سورة الفتح، فقرأها رسول الله صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على عمر إلى آخرها، فقال عمر: يا رسول الله، أوفتح هو؟ قال: «نعم». أهـ.

ذلك الإخلاصِ أنه يجعلهم قادرين على ما لم يَقْدِروا عليه في قوله: ﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ﴾ [الفتح: ٢١]، قيل: إنها مكّة، قد أحاط الله تعالى بها، وقيل: إنها خَيْبَر[١]، وكلُّها فتحها الله تعالى عليهم؛ فقد صرَّح الله تعالى بأنهم عاجزون غيرُ قادرين، وأنه قد أحاط بها فأقدرهم عليها، وجعلها غنيمة لهم، وأوَّلُها فتحُ خيْبَرَ تقوَّى به المسلمون في سنة سبع، ثم بعد ذلك فُتِحَتْ مكة.

قال الشيخ: (**وجعلها غنيمةً لهم؛ لِمَا عَلِمَ من إخلاصهم؛ ولذلك لَمَّا ضرَبَ الكفارُ علىٰ المسلمين في غزوة الأحزاب ذلك الحصارَ العسكريَّ العظيمَ**)؛ حيث جاؤوا بعشرة آلاف، وأحاطوا بالمدينة، وبَقِيَ المسلمون في الخندق، لم يقدر الكفار أن يتسوَّروا عليهم، فضرب عليهم الكفَّارُ هذا الحصارَ العسكريَّ العظيمَ؛ كما في قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ [الأحزاب: ١٠]، فقد كان كثيرون يظنُّون بالله أنه لا ينصُرُهم، ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ١١]، وظهر النفاق، فقال المنافقون: ﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب: ١٢]، يعدنا محمَّد أنَّا سنفتح مصر، وسنفتح الشام، وستتغلَّب على الروم وعلى الفرس، ونحن الآن محاصرون لا يَقْدِرُ أحدُنا أن يذهب إلى الخلاء![٢] ﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب: ١٢].

وعلاجُ هذا الضَّعْفِ والحصارِ العسكريِّ هو: الصبرُ، والإخلاصُ، وقوةُ الإيمان، والثقةُ بوعدِ اللهِ أنه لا يخذُلُ رسولَهُ ﷺ.

(١) ينظر: تفسير الطبري (٢١/ ٢٨٦)، وتفسير ابن كثير (٧/ ٣٤٠).
(٢) ينظر: تفسير الطبري (١٩/ ٣٩)، وتفسير ابن كثير (٦/ ٣٨٨).

ولما صدَّقوا الرسول تصديقًا جازمًا، قالوا: لا يمكن أن يُغلَبَ المسلمون ويهزموا، فصبروا؛ قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ [الأحزاب: ٢٢]، المؤمنون الصادقون، ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [الأحزاب: ٢٢]، يعني: وعدنا بأنَّا سوف نُبْتلى، ويغزونا الأعداءُ، ويضيِّقون علينا، ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

ونتيجةُ هذا الإخلاصِ: أن الله هزَمَ الأعداء؛ قال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٥]، أي: رجعوا بغيظهم الذي في قلوبهم، ﴿لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥]، يعني: كفاكم أيها المؤمنون قتالهم، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

كان لبني قُرَيْظةَ من اليهودِ عهدٌ مع المسلمين، فجاءهم حُيَيُّ بنُ أخطَبَ من بني النضير، وزيَّن لهم فنقَضُوا العهدَ[1]، فلما نقضوه وانهزم المشركون، غزا المسلمون بني قُرَيْظةَ؛ قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٦]، أي: من أعالِي قصورِهم، ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ [الأحزاب: ٢٦]، وسلَّطكم عليهم، ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ [الأحزاب: ٢٧]، أي: وَرِثْتم أرضهم، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٧].

حصَلَ هذا النصرُ لما أخلَصَ الصحابةُ وصدَقُوا، وكان هذا النصر الذي ذكره الله تعالى نصرًا بالملائكةِ والرِّيحِ: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩]؛ وذلك أنهم في ليلة من الليالي أرسل الله عليهم ريحًا، فصارت تُكْفِئُ القدورَ التي نصَبُوا فيها الأطعمة،

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الجزية، باب: نقض أهل العهد أو بعضهم العهد (٩/ ٣٨٨).

وتَقْلَعُ الخيامَ، وتسبِّبُ حرائقَ كثيرة، فلما رأوا ذلك، وطال عليهم الحصارُ، أجمعوا على أنهم سوف يَرْجِعونَ، فرجَعُوا وردَّهم الله بغيظهم[١].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولأجلِ هذا كان من الأدلَّة على صحَّة دِينِ الإسلام: أن الطائفةَ القليلةَ الضعيفةَ المتمسِّكةَ به تَغْلِبُ الكثيرةَ القويَّةَ الكافرةَ).**

فقد كان المسلمون قليلين، ومع ذلك نصرهم الله في بدر: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

قال: **(ولذلك سمَّىٰ تعالىٰ يوم بدر: آيةً، وبيِّنةً، وفُرْقانًا)**؛ فقد كان المسلمون نحو ثلاثمائة، والكفار نحو ألف، ومع ذلك هزموهم؛ **(لدلالتِهِ علىٰ صحة دين الإسلام)**:

فقد نزَلَ في وقعة بدر: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ [آل عمران: ١٣]، والفئةُ التي تقاتل في سبيل الله: هم المسلمون، والكافرةُ: هم قريش يوم بدر.

وقال تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: ٤١]؛ فسمَّاه: آيةً، وسمَّاه: يوم الفرقان، وهو يوم بدر.

وقال تعالى ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]، هذا أيضًا: يومُ بدرٍ؛ على ما حقَّقه بعضهم[٢].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولا شك أن غلبةَ الفئةِ القليلةِ الضعيفةِ المؤمنة، للكثيرةِ القويَّةِ الكافرةِ، دليلٌ علىٰ أنها علىٰ الحق).**

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٩/ ٢٨)، وتفسير القرطبي (١٤/ ١٢٩).
(٢) ينظر: تفسير الطبري (١١/ ٢٠٣).

نعـم هـي فئـة قليلـة ضعيفـة، ولكنهـا قويَّـة الإيمـان، غلَبَـتِ الفئـة القويـة الكافـرة؛ أليس ذلـك دليـلًا علـى أنهـم علـى الحـق، وأن الله تعالـى هـو الـذي نصرهم؟! قال تعالى في وقعة بَدْر: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، أي: وأنتـم قِلَّـةٌ بالنسـبة إلـى الكفـار، وقـال تعالـى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ ﴾ [الأنفال: ١٢]، وقـد أوحى الله تعالى إلـى الملائكـة الذيـن أمدَّهـم بهـم، فثبَّتـوا المؤمنيـن، وألقـى في قلـوب الكفـار الرعـبَ، فانهزمـوا، وقُتِـلَ منهـم سـبعون، وأُسِـرَ سـبعون[1].

والمؤمنـون الذيـن وعَدَهـم الله بالنصـر بيَّـن تعالـى صفاتهـم، وميَّزهـم بهـا عـن غيرهـم؛ قـال: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحـج: ٤٠]، ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ [محمـد: ٧]؛ فـالله تعالـى قـادرٌ علـى أن يُهلِـكَ الكفـارَ في لحظـة، ولكنَّـه ابتلـى المؤمنيـن بالكفـار؛ ليظهـر مـن يطيعُـهُ ومـن لا يطيعُـه؛ ولذلـك إذا صدَقُـوا، نصَرَهـم الله، ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾.

وقـد ميَّزهـم عـن غيرهـم بصفـات ذكرهـا الله تعالـى في قولـه: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [الحج: ٤١]؛ فهـؤلاء هـم الذيـن ينصُرُهـم الله؛ ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤١].

قـال الشـيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهـذا العـلاجُ الـذي أشـرنا إليـه أنـه عـلاج للحصـارِ العسـكريِّ)**؛ إذا حاصـر العسـكرُ المسـلمين، **(أشـار تعالـىٰ في سـورة المنافقيـن إلىٰ أنـه -أيضًا- علاجٌ للحصـارِ الاقتصاديِّ)**، يعني: تقوية المسـلمين؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ [المنافقون: ٧].

فقد كان المنافقون يقولون: لا تُنفِقُوا على هؤلاء المهاجرين المسـلمين؛

---

(١) ينظر: دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ١٠٢)، وتفسير ابن كثير (٤/ ١٨).

فإنهم إذا افتقروا ومسَّتهم الحاجة، تفرَّقوا ورجعوا إلى بلادهم، وتركوا محمَّدًا[١]؛ هكذا يُخيَّلُ إليهم، فأرادوا أن يُمْسِكُوا عن المسلمين النفقة.

قال: (وهو عينُ الحصارِ الاقتصاديِّ)، وعلاجُهُ: التمسُّك بالشرع، (وقد أشار تعالىٰ إلىٰ أن علاجه: قوَّةُ الإيمان به، وصدقُ التوجُّه إليه جَلَّوَعَلَا)، فلذلك قال: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧]؛ فكأنهم يقولون: نحن الذين نملك الأموال، فنُمسِكُها، ولا نُعطيها هؤلاء المهاجرين، فإذا أحسُّوا بالجوع، تفرَّقوا وتركوا محمدًا؛ فضاع أمره، وما علموا أن الله تعالى هو مالكُ كلِّ شيء.

هذا الذي أراد المنافقون أن يفعلوه هو الحصارُ الاقتصاديُّ، لكنَّ اللهَ تعالى بيده خزائنُ السموات والأرض، لا يُضِيعُ من التجأ إليه، ولا يضيعُ من أطاعه؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

جاءت الوصية بتقوى الله في هذه السورة في ثلاثة مواضع:

الأول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

والثاني: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

والثالث: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥].

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾، أي: فقرًا، ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٢٨]، وصدَقَ الله: فقد أعطاهم من فضله.

***

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٨/ ١٢٨).

المسألة العاشرة

اختلاف القلوب



قال الشَّنْقِيْطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

[المسألة العاشرة: التي هي مشكِلةُ اختلافِ القلوب:

فقد بيَّن تعالى في سورة الحشر أنَّ سببَها: عدَمُ العقل، بقوله: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤]، ثم بيَّن السببَ بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤]، ودواءُ ضَعْفِ العقلِ هو: إنارتُهُ باتِّباع نُورِ الوحي؛ لأن الوحي يُرشِدُ إلى المصالحِ التي تقصُرُ عنها العقول؛ قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]؛ فبيَّن في هذه الآيةِ أن نُورَ الإيمان يَحْيَا به من كان ميتًا، ويُضِيءُ له الطريقَ التي يمشي فيها.

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

وبالجملةِ: فالمصالحُ البشريَّةُ التي بها نِظَامُ الدنيا راجعةٌ إلى ثلاثة أنواع:

الأول: درءُ المفاسد، المعروفُ عند أهل الأصول بالضروريَّات، وحاصلُهُ: دَفْعُ الضرر عن الستة التي ذكَرْنا قبلُ، أعني: الدِّينَ، والنَّفْسَ، والعقلَ، والنَّسَبَ، والعِرْضَ، والمالَ.

الثاني: جَلْبُ المصالح، المعروفُ عند أهل الأصول بالحاجِيَّات، ومن فروعه: البيوعُ -على القول بذلك- والإيجاراتُ، وعامةُ المصالحِ المتبادَلةِ بين أفراد المجتمع على الوجهِ الشرعيّ.

الثالث: التحلِّي بمكارمِ الأخلاقِ، والجَرْيُ على محاسن العادات، المعروفُ عند أهل الأصول بالتحسينات، والتتميمات، ومن فروعه: خصالُ الفِطْرة؛ كإعفاء اللحية، وقصِّ الشارب... إلخ. ومن فروعه أيضًا: تحريمُ المستقذَرات، ووجوبُ الإنفاق على الأقارب الفقراء.

وكلُّ هذه المصالحِ لا يكونُ[1] شيءٌ أشدَّ محافظة عليها بالطرق الحكيمة السليمة مِن دِينِ الإسلام: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

وصلَّى الله وسلَّم على محمَّد وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين].

الشَّرح

هذه المسألة العاشرة - وهي الأخيرة- هي: مشكلةُ اختلاف القلوب، لم يتوسَّعْ فيها المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كيف يكون اختلاف القلوب، وما يكون بين الناس من اختلاف الآراء، ومن اختلاف الاجتهادات، واختلاف النظريَّات.

ولا شك أن هذه مشكلة كبيرة؛ فالمسلمون إذا اتَّفَقُوا ولم يختلفوا، فإن الله يقوِّيهم وينصُرُهم، وقد تقدَّم ذكر الأمر بالاجتماع، وعدم الاختلاف؛ قال تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، أي: تمسَّكُوا بحبل الله، وهو دِينُ الإسلام، ولا تتفرَّقوا وتكونوا أحزابًا.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥]؛ فالتفرُّقُ يسبِّبُ اختلاف القلوب، واختلاف الآراء، واختلاف النظريَّات، واختلاف الاجتهادات: ﴿كُلُّ حِزۡبِۢ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣]، والواجب: أن يكون المسلمون أمةً واحدةً.

(١) في طبعة عالم الفوائد: «يمكن»، وهو خطأ لا وجه له، والتصويب من طبعة الرئاسة العامة للبحوث والإفتاء.

ومشكلةُ اختلاف القلوب سببُها: عدَمُ العقل، وقد بيَّن الله ذلك في سورة الحشر في قوله تعالى: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ [الحشر: ١٤]؛ وهذا في اليهود، أي: أنهم جُبَناءُ، ثم قال: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤]، يعني: تظنُّهم مجتمعين، ولكنْ كلٌّ منهم له رأيٌ مخالِفٌ، وسببه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤]؛ فإذا قَلَّتِ العقولُ في الفئات، حصلت الخلافات.

وعلاجُ ضَعْفِ العقل: تنويرُهُ باتِّباعِ الوحي؛ فالوحيُ نور؛ كما في قول الله تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٨].

الوحي نُورٌ؛ من اتبعه فإنه يسير على هداه الذي يرشد إلى المصالح، التي تقصُرُ عنها العقول، فإذا رجعوا إلى الوحي، وعَمِلوا بالشرع، واتَّبعوا الإرشاداتِ الإيمانيةَ الربانيةَ، وتمسَّكوا بهذا الدِّين، وطبَّقوا تعاليم القرآن، فإن الله تعالى ينصُرُهم، وترجع إليهم عقولُهم، ولا يختلفون فيما بينهم.

ودليل ذلك قول الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وفي قراءة: (مَيِّتًا)(١)؛ وذلك لأنهم لما كانوا كُفَّارًا، كانوا كأنهم أمواتٌ؛ لأن الكفر موت القلوب، وإذا ماتت القلوب، فالأجساد -وإن كانت تتحرَّك- فإنها في الأصل كالميتة، ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾: بالإسلام، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾، هذا النورُ هو: نور الإيمان، ﴿كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾، هل يستويان؟! هذا

(١) أي: بتشديد الياء، وهي قراءة نافع، ينظر: السبعة في القراءات (ص٢٦٨)، وحجة القراءات (ص٢٧٠).

يمشـي في الظلمـات ليـس بخـارج منهـا، وهـذا أحيـاه الله، وجعـل لـه نـورًا يمشـي بـه في النـاس.

لا شـك أن الإيمـان يحيـا بـه مـن كان ميتًـا، هـذه حقيقـة نـور الإيمـان، يُضِـيءُ لـه الطريـق فيمشـي فيهـا، والطريـقُ هـا هنـا طريـق معنويَّـة، والمشـي فيهـا مشـيٌ بالأعمـال، ليـس مشـيًا بالأقـدام.

وفي القرآن نَجِدُ أدلة على ذلك: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ففـرَّق بيـن أهـل الإيمـان وأهـلِ الكفـر؛ فالمؤمنـون يتولَّاهـم اللهُ بنصـره، وتوفيقـه، وحفظـه؛ فيُخْرِجُهـم مـن ظلمـاتِ الكفـر إلـى نـورِ الايمـان، والذيـن كفـروا أنصارهـم الأنـدادُ الذيـن يعبُدُونَهـم مـن دون الله، يُخْرِجونهم مـن نـور الإيمـان إلـى ظلمـات الكفـر.

ثـم ذكـر الشـيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنـواعَ المصالـح، فقـال: (**فالمصالـحُ البشـريَّةُ التـي بهـا نظـام الدنيـا راجعـةٌ إلىٰ ثلاثـة أنـواع**)[1]:

(**الأول: دَرْءُ المفاسـد**)، ويسـميِّه أهـل الأصـول: الضروريَّـات، وهـي دفـع الضـرر عـن المسـلمين بالستة التي تقدَّمـت: الدِّيـن، والنَّفْـس، والعقـل، والنَّسَـب، والعِـرْض، والمـال.

(**الثـاني: جَلْـبُ المصالـح**)، ويسـمِّيه أهل الأصـول: الحاجيَّـات، يعني: التي يحتـاج إليهـا المسـلمون، ومـن فروعـه: البيـوعُ التـي أحلَّهـا الله، علـى القـول بذلـك، والإيجـاراتُ، وسـائرُ المصالـحِ المتبادَلـةِ بين أفراد المجتمـع على الوجهِ الشـرعيّ، هـذه تُسـمَّى: حاجيَّـات؛ إذا اسـتعملوها، حصلـت لهـم المصالـح.

---

(١) ينظـر: الموافقـات (٢/ ١٧)، وأنـوار البـروق، في أنـواء الفـروق (٤/ ٣٤)، والمصالـح المرسـلة (ص٦)، ومذكِّـرة في أصـول الفقـه (ص٢٠٢)؛ كلاهمـا للشِّـنقيطي.

(**الثالث: التحلِّي بمكارمِ الأخلاقِ، والجَرْيُ علىٰ محاسن العادات**)، ويسمِّيه أهل الأصول: التحسيناتِ والتتميمات، ومنه: خصالُ الفطرة؛ كإعفاء اللحية، وقصِّ الشارب، تُسمَّى هذه: تتميمات، وتدخل فيها العشرُ التي ذُكِرَتْ في الحديث(١)، ذكر منها: قصَّ الشارب، وإعفاءَ اللحية، والسواكَ، وتقليمَ الأظفار، وحَلْقَ العانة، وانتقاصَ الماء، يعني: الاستنجاء، وغَسْلَ البراجم، والمضمضةَ، والخِتَانَ.

قال المؤلِّف: (**ومن فروعه أيضًا: تحريمُ المستقذَرات**)؛ حرَّم الشرعُ الخبائثَ؛ قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وهي: جميع ما هو مُستخبَث. وكذلك (**وجوبُ الإنفاق علىٰ الأقارب الفقراء**)؛ فعلى الإنسان الثَّرِيِّ أن يُنفِقَ على أقاربه.

قال: (**وكلُّ هذه المصالحِ لا يكونُ شيءٌ أشدَّ محافظةً عليها بالطرقِ الحكيمةِ السليمة مِن دِينِ الإسلام**)؛ فهذه المصالح جاء الإسلام بالمحافظة عليها.

ثم ختم الشِّنْقِيْطِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الآية في أول سورة هود: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

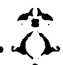
فقرَّر أصلَ كمالِ الدِّين، وتمامِ النِّعْمة على المسلمين.

نسأل الله تعالى ونتوسَّلُ إليه بأسمائه الحُسْنى، وبصفاته العلا، نقول:

- **اللهم** مكِّن لنا دِينَنَا الذي ارتضيته لنا يا ربَّ العالمين.
- **اللهم** بدِّلْنا بعد الخوف أَمْنًا، وبعد الذُّلِّ عِزًّا، وبعد الفقر غِنًى، وبعد القلة كثرةً.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة، حديث رقم (٢٦١)؛ من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.



• **اللهم** انصُرْ دينَكَ وكتابَكَ وسنةَ نبيِّكَ وعبادَكَ الموحِّدين.

• **اللهم** أَبرِمْ لهذه الأمة أمرَ رُشْدٍ يُعَزُّ فيه أهلُ طاعتِكَ، ويُذَلُّ فيه أهلُ المعاصي، ويُؤْمَرُ فيه بالمعروف، ويُنْهَى فيه عن المنكر، يا سميعَ الدعاء.

• **اللهم** أَظهِرِ دينَ الحقِّ الذي بَعَثْتَ به نبيَّك ﷺ، على الدِّينِ كُلِّهِ ولو كَرِهَ المشرِكون.

• **اللهم** أَعِزَّ الإسلام والمسلمين، وأَذِلَّ الشركَ والمشركِين، ودَمِّرْ أعداءَكَ أعداءَ الدين، وانصُرْ عبادَكَ الموحِّدين، يا ربَّ العالمين.

• **اللهم** أَصلِحْ أئمةَ المسلمين وقادتَهم، واجْعَلْهم هداةً مهتدين، يقولون الحقَّ وبه يَعْدِلُون، يا ربَّ العالمين.

والله أعلمُ، وصلَّى الله على محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين.



الفهارس العلمية

- فهرس الآيات القرآنية.
- فهرس الأحاديث النبوية والآثار.
- فهرس الأعلام المترجم لهم.
- فهرس المصادر والمراجع.
- فهرس الموضوعات والفوائد.



فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث النبوية والآثار



فهرس الأعلام المترجم لهم



فهرس المصادر والمراجع

أولًا: القرآن الكريم.

ثانيًا: المصادر والمراجع الأخرىٰ:

١- أبي كما عرفته، لهيا بنت عبد الله الجبرين، مدار الوطن، الرياض، ط٢، ١٤٣٩هـ.
٢- إتحاف اللبيب في سيرة الشيخ عبد العزيز أبو حبيب، لمحمد بن ناصر الشثري، دار العاصمة، الرياض، ط١، ١٤١٠هـ.
٣- اجتماع الجيوش الإسلامية، لشمس الدين ابن قيم الجوزية، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ط١، ١٤٠٨هـ، تحقيق: عواد المعتق.
٤- أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، للفاكهي، دار خضر، بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ، تحقيق: د. عبد الملك بن دهيش.
٥- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، للأزرقي، دار الأندلس للنشر، بيروت، تحقيق: رشدي الصالح ملحس.
٦- اختلاف الأئمة العلماء، للوزير ابن هُبَيْرَة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ، تحقيق: السيد يوسف أحمد.
٧- أساس البلاغة، للزمخشري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ، تحقيق: محمد باسل عيون السود.
٨- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، لشهاب الدين الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المملكة المغربية، تحقيق: جعفر الناصري.
٩- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٤١٥هـ.
١٠- اعتلال القلوب، للخرائطي، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط٢، ١٤٢١هـ، تحقيق: حمدي الدمرداش.
١١- أعجوبة العصر، سيرة سماحة الشيخ ابن جبرين، لعبد الرحمن بن عبد الله الجبرين، مؤسسة ابن جبرين الخيرية، الرياض، ط١، ١٤٣٣هـ.
١٢- الأعلام، لخير الدين الزركلي الدمشقي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٣٩٩هـ.
١٣- الإنسان ذلك المجهول، للدكتور أليكسيس كاريل، الدار القومية للطباعة والنشر، ترجمة: عادل شفيق.

١٤- أنوار البروق في أنواء الفروق، لشهاب الدين القرافي، عالم الكتب، بيروت.
١٥- البحر المحيط، لأبي حيّان الأندلسي، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ، تحقيق: صدقي محمد جميل.
١٦- تاج العروس من جواهر القاموس، لمرتضى الزَّبيدي، دار الهداية، الكويت، تحقيق: د عبد الستار فراج، ومجموعة من كبار المحققين.
١٧- تاريخ الخلفاء، لجلال الدين السيوطي، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط١، ١٤٢٥هـ، تحقق: حمدي الدمرداش.
١٨- تاريخ نجد، لابن غنّام، دار الشروق، بيروت، تحقيق ناصر الدين الأسد.
١٩- تأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة الدينوري، المكتب الإسلامي، بيروت، ومؤسسة الإشراق، الدوحة، ط٢، ١٤١٩هـ، تحقيق: محيي الدين الأصفر.
٢٠- التبيان في أقسام القرآن، لابن قيم الجوزية، دار المعرفة، بيروت، تحقيق: محمد حامد الفقي.
٢١- تتمة الأعلام، لمحمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، ط٢، ١٤٢٢هـ.
٢٢- ترجمة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، لعبد الرحمن السديس، دار الهجرة للنشر، الرياض.
٢٣- تفسير ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم، لعبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط٣، ١٤١٩هـ، تحقيق: أسعد الطيب.
٢٤- تفسير ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، دار طيبة، الرياض، ط٢، ١٤٢٠هـ، تحقيق: سامي السلامة.
٢٥- تفسير البغوي، معالم التنزيل، لمحيي السنة البغوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ، تحقيق: عبد الرزاق المهدي.
٢٦- تفسير الرازي، التفسير الكبير، لفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.
٢٧- تفسير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري، دار هجر، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ، تحقيق: د عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث بدار هجر.
٢٨- تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله القرطبي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش.
٢٩- تهذيب اللغة، لأبي منصور الأزهري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م، تحقيق: محمد عوض مرعب.

٣٠- الجامع الصغير، لجلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت.
٣١- جهود الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف، لعبد العزيز بن صالح الطويان، مكتبة العبيكان، الرياض.
٣٢- حجة القراءات، لابن زنجلة، دار الرسالة، تحقيق: سعيد الأفغاني.
٣٣- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم الأصبهاني، دار السعادة، مصر، ١٣٩٤هـ.
٣٤- الدرر السنية في الأجوبة النجدية، لعلماء نجد الأعلام، جمع وتحقيق: عبد الرحمن بن قاسم، ط٦، ١٤١٧هـ.
٣٥- دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، للشنقيطي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط١، ١٤١٧هـ.
٣٦- دلائل النبوة، لأبي بكر البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ، تحقيق: عبد المعطي قلعجي.
٣٧- دولة الموحدين، لعلي محمد الصَّلَّابي، دار البيارق للنشر، عمان.
٣٨- ديوان ابن الوردي، لأبي حفص عمر بن الوردي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الآفاق العلمية، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ -٢٠٠٦م.
٣٩- ديوان الإمام الشافعي، اعتناء: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت.
٤٠- ديوان الأمير الصنعاني، للإمام محمد بن إسماعيل الصنعاني، أشرف على طبعه: علي السيد صبح المدني، مطبعة المدني، ط١، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.
٤١- ديوان المتنبي، لأبي الطيب المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت.
٤٢- ذم الهوى، لأبي الفرج ابن الجوزي، تحقيق: مصطفى عبد الواحد.
٤٣- الزهد والرقائق، لابن المبارك، دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي.
٤٤- زهر الآداب وثمر الألباب، لأبي إسحاق القيرواني، دار الجيل، بيروت.
٤٥- السبعة في القراءات، لأبي بكر بن مجاهد البغدادي، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٤٠٠هـ، تحقيق: شوقي ضيف.
٤٦- سنن ابن ماجه، لأبي عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجه، دار إحياء الكتب العربية، الحلبي، مصر، ١٣٧٢هـ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.
٤٧- سنن أبي داود، لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، مطبعة الحلبي، مصر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.
٤٨- سنن الترمذي، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرَة، مطبعة الحلبي، مصر، تحقيق: أحمد محمد شاكر، أكمل تحقيقه: فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة.

٤٩- السنن الكبرى، لأبي بكر البيهقي، دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد، الهند، ط١، ١٣٤٤هـ.
٥٠- سنن النسائي، لأبي عبد الرحمن، أحمد بن شعيب النسائي، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط٢، ١٤٠٦هـ تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة.
٥١- سيرة الشيخ عبد الرحمن الدوسري، لسليمان بن ناصر الطيار، دار ابن الأثير، الرياض، ط١، ١٤٣٥هـ.
٥٢- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، لأبي القاسم اللالكائي، دار طيبة، الرياض، تحقيق: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي.
٥٣- شرح الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٧هـ تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة.
٥٤- شرح ديوان الحماسة (ديوان الحماسة: اختاره أبو تمام)، لأبي زكريا التبريزي، دار القلم، بيروت.
٥٥- شرح ديوان المتنبي، لأبي البقاء العكبري البغدادي، دار المعرفة، بيروت، تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي.
٥٦- شعب الإيمان، لأبي بكر البيهقي، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤٢٣هـ تحقيق د. عبد العلي عبد الحميد حامد.
٥٧- شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، لنشوان الحميري اليمني، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ تحقيق: د حسين بن عبد الله العمري، وآخرين.
٥٨- صحيح ابن حبان، لأبي حاتم بن حبان البُستي، ترتيب ابن بلبان الفارسي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ.
٥٩- صحيح البخاري، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسُننه وأيامه، لأمير المؤمنين أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٨٠هـ تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.
٦٠- صحيح مسلم، لأبي الحسين، مسلم بن الحجاج القُشيري النيسابوري، مطبعة الحلبي، مصر ١٩٥٥م، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.
٦١- الصفدية، تقي الدين أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، مكتبة ابن تيمية، مصر، ط٢، ١٤٠٦هـ، تحقيق: محمد رشاد سالم.
٦٢- الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، لابن قيّم الجوزية، دار العاصمة، الرياض، ط١، ١٤٠٨هـ تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله.

٦٣- الضياء الشارق في رد شبهات الماذق المارق، لسليمان بن سحمان، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، الرياض، ط٥، ١٤١٤هـ، تحقيق: عبد السلام بن برجس.
٦٤- طبقات الشعراء، لابن المعتز، دار المعارف، القاهرة، تحقيق: عبد الستار فراج.
٦٥- طبقات الشعراني، لوافح الأنوار في طبقات الأخيار، للشَّعْراني، مكتبة محمد المليجي الكتبي وأخيه، مصر، ١٣١٥هـ.
٦٦- الطبقات الكبرى، لابن سعد، دار صادر، بيروت، تحقيق: د إحسان عباس.
٦٧- طبقات النسابين، بكر بن عبد الله أبو زيد، دار الرشد، الرياض، ط١، ١٤٠٧هـ.
٦٨- العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط٢، ١٤٢٦هـ، تحقيق: د خالد السبت.
٦٩- العقوبات، لابن أبي الدنيا، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف.
٧٠- عقيدة محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي، لصالح العبود، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط٢، ١٤٢٤هـ.
٧١- علماء نجد خلال ثمانية قرون، عبد الله بن عبد الرحمن آل بسام، دار العاصمة، الرياض، ط٢، ١٤١٩هـ.
٧٢- عيون الأخبار، لابن قتيبة الدينوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ.
٧٣- الفتاوى الكبرى، لشيخ الإسلام ابن تيمية، دار الكتب العلمية، بيروت.
٧٤- فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، للشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، جمع وتحقيق: محمد بن عبد الرحمن بن قاسم، مطبعة الحكومة، مكة المكرمة.
٧٥- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.
٧٦- الفَرق بين الفِرق، لعبد القاهر البغدادي، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
٧٧- الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، لابن تيمية، مكتبة دار البيان، دمشق، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط.
٧٨- الفُروق اللغوية، لأبي هلال العسكري، دار العلم والثقافة، القاهرة، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة.
٧٩- فضل الصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم، للقاضي إسماعيل بن إسحاق الجهضمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٣٩٧هـ، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني.
٨٠- قلادة الجواهر في غوث الرفاعي، المطبعة الأدبية، بيروت
٨١- كتاب الأصنام، لابن بشر الكلبي، دار الكتب المصرية، القاهرة، تحقيق: أحمد زكي باشا، ط٣، ١٩٩٥م.

٨٢- كتاب التوحيد، لمحمد بن عبد الوهاب، الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء، ط٢، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.
٨٣- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، لأبي القاسم الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ.
٨٤- كشف الشبهات، لمحمد بن عبد الوهاب، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية.
٨٥- كشف غياهب الظلام عن أوهام جلاء الأوهام، لسليمان بن سحمان، أضواء السلف، الرياض.
٨٦- اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل الحنبلي الدمشقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩، تحقيق: الشيخ عادل عبد الموجود، والشيخ علي معوض.
٨٧- لسان العرب، لجمال الدين ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.
٨٨- مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وتحقيق: عبد الرحمن بن قاسم، مجمع الملك فهد، المدينة، ١٤١٦هـ.
٨٩- مجموع فتاوى ابن باز، مجموع فتاوى ومقالات متنوعة، للشيخ ابن باز، جمع وإشراف: د محمد بن سعد الشويعر، دار القاسم، ط١، ١٤٢٠هـ.
٩٠- مجموع مؤلفات الشنقيطي، آثار الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي، لمحمد الأمين الشنقيطي، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط١، ١٤٢٦هـ إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد.
٩١- مداراة الناس، لابن أبي الدنيا، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ تحقيق: محمد خير رمضان يوسف.
٩٢- مدارج السالكين، لابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤١٦هـ تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي.
٩٣- مذكرة في أصول الفقه، للشنقيطي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط٥، ٢٠٠١م.
٩٤- المستدرك على الصحيحين، لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري، دار المعرفة، بيروت، إشراف: د يوسف المرعشلي.
٩٥- مسند أبي داود الطيالسي، لأبي داود الطيالسي، دار هجر، القاهرة، ١٤١٩هـ تحقيق: محمد بن عبد المحسن التركي.
٩٦- مسند أبي يعلى، لأبي يعلى الموصلي، دار المأمون للتراث، دمشق، ط١، ١٤٠٤هـ تحقيق حسين سليم أسد.

٩٧- مسند أحمد، لإمام أهل السنة أبي عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢١، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين.

٩٨- مسند البزار، البحر الزخار، لأبي بكر البزار، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط١، ١٩٨٨م- ٢٠٠٩م، تحقيق: محفوظ الرحمن، وآخرين.

٩٩- المسند المستخرج على صحيح مسلم، لأبي نعيم الأصبهاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧، تحقيق: محمد حسن إسماعيل الشافعي.

١٠٠- المصالح المرسلة، للشنقيطي، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط١، ١٤١٠هـ.

١٠١- المطلع على ألفاظ المقنع، لابن أبي الفتح البعلي، مكتبة السوادي، جدة، ط١، ١٤٢٣، تحقيق: محمود الأرناؤوط، وياسين الخطيب.

١٠٢- معجم البلدان، لياقوت الحموي، دار صادر، بيروت.

١٠٣- المعجم الكبير، لأبي القاسم الطبراني، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي.

١٠٤- المعين بنقد الأربعين، لعبد الله بن الصديق الغماري، تحقيق حسن السقاف.

١٠٥- مفتاح دار السعادة، لابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٠٦- مكارم الأخلاق، للطبراني (مطبوع مع مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا)، دار الكتب العلمية، بيروت، كتب هوامشه: أحمد شمس الدين.

١٠٧- الملل والنحل، للشهرستاني، مؤسسة الحلبي.

١٠٨- الموافقات، لأبي إسحاق الشاطبي، دار ابن عفان، القاهرة، ط١، ١٤١٧، تحقيق: مشهور حسن سلمان.

١٠٩- الموسوعة العربية العالمية، لمجموعة من الباحثين، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، ط٢، ١٤١٩هـ تمويل مؤسسة الأمير سلطان بن عبد العزيز آل سعود الخيرية.

١١٠- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، إشراف وتخطيط ومراجعة: د. مانع بن حماد الجهني، دار الندوة العالمية، ط٤، ١٤٢٠هـ.

١١١- نصب الراية لأحاديث الهداية، لجمال الدين الزيلعي، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، ومؤسسة الريان، بيروت، والمكتبة المكية، مكة، ط١، ١٤١٨هـ، تحقيق: جماعة من علماء الهند، قام على إعادة نشره: محمد عوامة.

١١٢- نونية ابن القيم، الكافية الشافية، لابن قيم الجوزية، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢، ١٤١٧هـ.

١١٣- نيـل الأوطـار، لمحمـد بـن علـي الشـوكاني اليمنـي، دار الحديـث، القاهـرة، ط١، ١٤١٣، تحقيـق: عصـام الديـن الصبابطـي.

ثالثًا: الشبكة العنكبوتية (الإنترنت):

١- سيرة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين رحمه الله في موقعه على الإنترنت:
http://www.ibn-jebreen.com

٢- موقع الملك سعود بن عبد العزيز آل سعود رحمه الله على الإنترنت:
http://www.kingsaud.org/ar/history/article/a/1236

٣- موقع ويكيبيديا على الإنترنت:
https://ar.wikipedia.org/wiki/%D985%%D8%AD%D985%%D8.%)A7%D985%%D8%B3_%D8%A8%D986%_%D98%A%D988%%D8%B3%D981%



فهرس الموضوعات والفوائد